

محسن الرملي



مكتبة
الفكر
الجدید

تمر الأصابع

رواية



تمر الأصابع

رواية

تمر الأصابع

رواية

محسن الرملي

منشورات الاختلاف
Editions EHkhtlef



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. s.a.l

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

ردمك 978-9953-87-627-6

جميع الحقوق محفوظة للناشرين

منشورات الاختلاف
Editions Elkhitlef

149 شارع حسيبة بن بو علي

الجزائر العاصمة - الجزائر

هاتف/فاكس: +213 21676179

e-mail: editions.elikhitlef@gmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (+961-1)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (+961-1) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على شريطة أو أقرص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ للمعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

لتضديد وفرز الألوان: أجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (+9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (+9611)

إهداء..

.. إلى العراق: مهد طفولتي ومهد الحضارات

.. إلى إسبانيا: محطتي للسلام بعد طريق طويل مكتظ بالحروب

ما كنتُ لأكتب قصة أهلي وأفضحهم لولا تشجيع أبي لي وهو يخلق شعر رأسي في مرقصه المدريدي، قائلاً: "اكتب ما تشاء فلن يحدث أسوأ مما حدث.. هذا العالم جايف". لم أعلق على قوله، لحظتها، مكتفياً بمواصلة استشعاري لشفرته وهي تكاد تجلظ الجلد خلف أذني.

بدأت الحكاية يوم اصطحب أبي نوح أختي إستيرق إلى أطباء المدينة لتعالج من مرض أذبلها وجعلها تغوط في ثياها سائلاً أصفر، ولم تنفعها مداومتها على أكل مسحوق الخرنوب الذي وصفته لها الحكيمات من العجائز، فنحل جسدها وارتنحى لهاها وهي في الرابعة عشرة من العمر، صارت شاحبة صفراء مثل أوراق التبغ، لكنها بدت أجمل من مجايلاتها القرويات، لأنها احتجبت عن شمس الحقول التي تصبغ الوجوه بلون الخشب القديم. لم تكن أمي لتكلفها بأعمال صعبة في المزرعة، فتكتفي بفعل أشياء بسيطة في البيت كترتيب الأسرة وغسل المواعين وكنس الدار ونشر الملابس. لقد ولدت إستيرق توأماً مع أخت أخرى اسمها سندس ماتت بعد تسعة أشهر. كانتا ضعيفتين صغيرتين تتلويان في المهذ كفاترتين مبللتين بالحليب، وكنا جميعاً نتوقع أن تموت إستيرق أيضاً، لكنها واصلت الحياة وإن كانت نحيلة صفراء لكنها طيبة وجيلة.

انطلق نوح من قرينتا الأولى - الصُبح - ظهراً، مصطحباً ابنته التي عَطَّرت ثوبها، ليصلا بعد ساعة إلى مدينة تكريت وقبل أن يدخلا

إلى عيادة أحد الأطباء، حيث كانت إستيرق تمشي خلفه على مسافة
خطوة وهو يشق لها الطريق على رصيف السوق، مرت سيارة
مرسيدس سوداء على مهل وامتدت من نافذتها يد إلى مؤخرة إستيرق
وعبارة: "خوش طيز". فصاحت البنت فرعة واستدار إليها الأب الذي
سرعان ما هب غاضباً ساحباً السائق من رقبته، صارخاً بوجهه: "يا
ابن الكلب"، ورافعاً إياه كمن يرفع حرة من عنقها، حتى أخرجه من
نافذة السيارة. كان شاباً نحلاً يضع نظارات زرقاء فوق شويربه الجديد
ويرتدي دشداشة بيضاء عريضة، على وسطها/وسطه حزام جلدي
عريض يتدلى منه مسدس عند الخاصرة. السيارة السوداء واصلت سيرها
البطيء خالية حتى ارتطمت بسيارة واقفة وتوقفت، فيما الخال نوح
بقوته على الفتى ضرباً وشتماً والفتى يصيح: "أتعرف ابن من أنا؟".
ونوح يردد بلا هوادة أو اكتراث وبلا انقطاع عن الضرب: "نعم..
أعرف؛ أنت ابن كلب.. أنت ابن فحبة". تلتطخ أبيض الدشداشة بأحمر
الفتى الذي حاول أن يمد يده إلى مسدسه، فلوى نوح ذراعه وحمله
عالياً ثم ضرب الأرض به، فسكن الشاب بلا حركة، بينما الغضب
يجتاح نوح على أوجهه فانحنى وأخذ المسدس من الحزام واستخرج مشط
الرصاصات واضعاً ثلاثاً منها في كفه وألقى بالمسدس إلى فتحة المجاري،
ثم عرى مؤخرة الفتى السائق على وجهه وراح يُدخل الرصاصات في
الإست عنوة، أدخل اثنين ثم وجد نفسه مطوقاً بأصحاب المحلات
ودواب السوق - كما يسميهم - ترفعه جماعة وهو كتور مصارعة،
صائحة به: "هل أنت مجنون.. هذا ابن أخت سكرتير نائب الرئيس".

بعدها.. وجد نفسه محمولاً من ظلمة ضربات الشرطة على بطنه
إلى ظلمة بطن زنزانة، لا يعرف عن إستيرق شيئاً، ذلك أنها حين
رأت الدم تغطت الأصفر على ثوبها المعطر وجلست أمام واجهة محل

قرية، تبكي وترتجف مثل سعة في المطر، حتى أخذها بعض أولاد الحلال إلى قريتها، الصُّبح، حيث غسلتها أُمي ودثرتها في الفراش، وروت لجدتها - مُطلق الجالس عند رأسها - ما حدث، فانتفض صائحاً بالعائلة: "إذا نبح عليك الكلب فلا تتبع عليه، ولكن إذا عضك فعضه". ذلك القول الذي أصبح حكمته في الحياة واشتهر به بين القرى منذ طفولته، حين كان يداوم على دروس الملا عبد الحميد، حاملاً حقيته القماشية التي صنعتها له أمه، بعد أن قصت النصف الأسفل لكيس الرز وطرزت على جانبه طفلاً بمنحاً وخاطت له حمالة يعلقها على كتفه. كانت حقية تتدلى تحت إبطه وفيها نسخة من القرآن ودفتر رمادي الأوراق ورغيف خبز وحفنة ثمر ورأس بصل.. مثل حقائب كل أولاد القرى الذين علمهم الملا عبد الحميد القرآن. وذات مرة، اعترضه كلب في طريقه إلى المسجد. نبح الكلب عليه فهروا، وهروا الكلب خلفه، ركض فركض، ثم توقف ليلتقط حجراً، لكن الكلب اعتلى ظهره، فاستدار إليه وتصارع معه على الأرض. حَمَش الكلب رقبته وعض ساقه، وازداد نباحاً وشراسة على وقع الضربات، وفي فورة العراك وجد مطلق رقبة الكلب أمام وجهه فعوضها بقوة أسكنت الكلب وأسكته سوى من صوت خفيض خجول: "عُووو.. عووو"، وانصرف سابلاً ذيله دون أن يلتفت، فيما واصل مُطلق طريقه إلى المسجد وهو يعرج. سأله الملا عن تأخره وعن هذا الدم، فأجابه وسط عيون الصغار: "نبح عليّ الكلب فلم أنبح عليه، ولكنه عضني فعوضته". صمت الملا قليلاً ثم ابتسم وقال: "صفقوا له". وأنزل عمامته وربط بها ساق مُطلق، ثم أعطاه حفنة أخرى من الثمر وربت على كتفه.. ومنذ ذلك الوقت اشتهرت حكايته وأصبح يُفاخر بها، معتبراً ما قاله حكمة هو مُكتشفها، مهمورة بتكريم الملا عبد الحميد له، "ألف رحمة على روحك يا ملا عبد الحميد".

انتفضر جدي مُطلق، الذي يعتز بحمله لاسم جدنا الأول، ونادى على أولاده التسعة وأحفاده وأخوته وأولادهم وأحفادهم وأولاد عمه وأولادهم وأحفادهم، وقال لهم: "جهزوا أسلحتكم وسياراتكم كي نمجّم على تكريت ونُخرج نوح من الحبس، فلو سكتنا على البعْصَة سيركبونا". فسارع الجميع لإخراج المراوات والسيوف والخناجر والفتالات والبنادق والمسدسات من خلف دكات الفرش ومن المزابيل حيث كانت مدفونة. وأشارت أمي إلى بقعة في جدار بيتنا الطيني كي أحفرها بعد أن أنزلت لوحة (آية الكرسي). ناولتني فأس حطّبتها قائلة: "اضرب هنا". فرحت أضرب الحائط.. وأضرب حتى ارتطم الفأس بمعدن. وقالت: "استخرج هذا الصندوق". فوسعت دائرة ضرباتي التي أصبحت نقرأ خفيفاً حتى أدركتُ حدود الصندوق فأخرجته. صفيح صديء، وعلقتُ بخنان: "الصندوق هدية جدتك لنا في العرس وما فيها هدية جدك وأعمام والدك". ثم أضافت: "اذهب به إلى جدك". كان ثقيلاً، ولولا الظلمة وقصر المسافة لفتحته في الطريق، لكنني تصيرت حتى وضعته أمام جدي المحاط بخمسة من أعمامي وأحد أحوالي، ففتحه وأخرج منه بندقية مفككة ومسدين ملفوفين بأقمشة رطبة بفعل زيت الشحم النفطي الذي كسا الأسلحة.

كان الأقارب يتقاطرون إلى بيت جدي حيث التوتر يشد الوجوه والمخاضات. قهوة مرّة وذكريات معارك واستنفار رجولة، وحكاية جدي صغيراً مع الكلب وحكمته تعاد ويتم استلهاؤها. خططُ على ضوء معلومات ناقصة من بعض الذين زاروا تكريت مؤخراً، لأن جدي لا يعرف عنها الآن شيئاً وقال: "كنت أعرفها منذ كانت قرية صغيرة، تراهما أحمر، مليئة بالجرذان وبعض رعائهما يتاجرون بالبحاش.. فأين الحبس؟". قالوا لا نعرف بالضبط فقد كثرت فيها العمارات ومراكز

الشرطة.. مصطفى يعرف لأهم قد سجنوه هناك قبل سنتين حين شتم الحكومة في سوق الغنم. قال: هاتوا مصطفى.

لم نم في تلك الليلة؛ اجتمع كل آل مطلق ومن تزوج معهم من أهل القرية، حتى اكتظ البيت والباحة بالرجال وهم يهينون أحزمتهم ويحشونها بالرصاص. اليشماغ على الأكتاف والأيدي تستعيد تعارفها عبر مصافحتها لمفاصل الأسلحة، فيما تشغل النساء بالطبخ وجلب المخفي من العتاد في صرر الثياب القديمة.. والهمس عما جرى لإسترق.. والرهبة.

الأطفال يلعبون لعبة الحرب، وكلما توقفوا للاستراحة تفحصت نظراتهم الأسلحة بين أيدي آبائهم وحاولوا لمسها عبر الجلوس المهذب حوار الآباء حتى يغفلوا أو ينشغلوا بالحديث. بعضهم توسل بأمه أن تقول لأبيه أن يسطحه معه، لكن الأم تنهره بحدة حاسمة: "وين تولي؟ هذه نار كبرى وليس لعب جهال". وحين طال الليل نام الأطفال في أحضان أمهاتهم أو على أفخاذ الآباء أو على العشب. وجلس الرجال في مجموعات صغيرة، فيما جدي يذكرهم بغزوات المسلمين الأوائل ويقرأ القرآن حتى صاح أول ديوك الفجر، فنهض أمراً برفع الآذان وصلى بنا جماعة. كان عمري سبعة عشر عاماً وأحسب من الرجال.

ركبنا السيارات وانطلقنا رتلاً لنصل مع أول الصباح. طوقنا مبنى المحافظة. أطلق عمي رصاصة في الفضاء خرج على إثرها المحافظ بيحامته المخططة بالأحمر في الشرفة خلف أصص الورد. أطل علينا ثم غاب وأعطى الأوامر لمن في الداخل بالاتصال بالشرطة والقيادة. عاد للظهور في الشرفة مرة أخرى، لكن، ببذلة أنيقة وربطة عنق، فهمس جدي في أذن عمي الذي صرخ بالمحافظ بعدها: "أعطونا نوح الآن..

وإلا هدمنا المحافظة على رؤوسكم". هتف المحافظ بارتباك: "تفضلوا بالدخول.. تعالوا نتفاهم يا جماعة". قال جدي لعمي، قل له: "ليس بيننا ما نتفاهم عليه، أعطونا نوحنا ونرجع إلى بيوتنا". صاح عمي بالعبارة ضاماً كفيه حول فمه كقمع ليرتفع الصوت. فأجاب المحافظ بعد أن دفع إلى الداخل طفله الذي خرج يفرك عينيه: "أي نوح؟.. أنا لا أعرف عن أي شيء تتحدثون؟". لكز جدي عمي في خاصرته وسارا صعوداً لدرجات واجهة المبنى حتى اختفيا في عتمة البوابة، وغاب المحافظ من الشرفة أيضاً حين رأهما يدخلان. وما هي إلا عشرة دقائق انتظار حتى وجدنا المدرعات وسيارات الشرطة تطوقنا، وفي السماء تحوم طائرتان مروحيتان، ومكبر صوت ينادي علينا من جهة لا نعلمها، ربما من كل الجهات ومن السماء ومن الأرض ومن خلف أصص الورد في الشرفة: ألقوا بأسلحتكم وسلّموا أنفسكم. فرد أحد ملثمينا برصاصة ليصطخب الجو بعدها بلعنة الرصاص بيننا وبينهم. عرفنا فيما بعد أن الذي أطلق الرصاصة الأولى هو ابن عمي (صراط) الذي يحب أختي إستيرق. لذا كان أشدنا حماسة وغضباً حتى أصابتنا عدواه فرحنا جميعاً نطلق الرصاص على المدرعات بصخب إلى أن غيّبتنا قنابل الدخان التي أسقطتها الطائرات، فساد الصمت إلا من السعال والشتائم المتبادلة، التي تواصلت حتى وجدنا أنفسنا في الظلمة. كل واحد في زنزانة. نتلقى الصفعات والركلات والسياط والشتائم، ولا نستطيع الرد بشيء سوى التوجع. كلما ازداد تعذيبهم لي ازداد تفكيراً بجدي وخشية عليه. كنت أسألم عنه، فيجيبونني بالضرب ولم يسألونني شيئاً، فأقول لنفسي: سيموت حتماً لو فعلوا به ما يفعلونه بي. فمن شدة الأوجاع تخدر جسدي ولم أعد أقوى على الحركة. غبت عن الوعي لمرات كثيرة تحت الضرب... أصحو على رشقات ماء

بارد وشتائم.. حتى ظننت أنني مقيم هنا في العذاب منذ أعوام.. أم أن هذا هو عذاب القبر الذي كان يحدثنا عنه جدي؟.. فأتمنى أن يكون الأمر مجرد كابوس سأصحو بعده على إفطار أُمي من القشطة والزبد والخبز الحار والتمر المقلي بالزيت والشاي المهيل. لكننا عرفنا فيما بعد أن التعذيب قد كان ليوم واحد فقط فلقد حملونا ليلاً والقونا جثثاً آتة مُدماة فوق بعضنا في أحواض شاحنات عسكرية بعد أن حلقوا رؤوسنا وشواربنا جميعاً. سارت الشاحنات وسط رتل عسكري من تسع سيارات مسلحة حتى وصلت القرية في منتصف الليل، حيث كانت عوائلنا بانتظارنا على سطوح المنازل برفقة القلق.

توقف الرتل وسط القرية، حيث الساحة الواسعة أمام المسجد، تلك التي نلعب فيها (المحيس) و(الخويتيمي) في ليالي رمضان الصيفية، وتقام فيها مآتم القرية وأعراسها وسباق الخيل والحميز والركض داخل أكياس القطن المربوطة فوق السرر والقفز العالي والعريض. ترجل الشرطة والعساكر بأسلحتهم وانتشروا في الساحة فيما راح أربعة منهم ينزلوننا حَمَلاً من الأذرع والسيقان، وقبل أن يرموا بأحدنا على الأرض اقتربوا به إلى الضابط النقيب ليسحب من الجيب البطاقة الجديدة التي أصدرها له.. مبدلين ألقابنا جميعاً من (المطلق) إلى (القشمر). وكلمة (قشمر) في العامية العراقية توحى بالاستخفاف والاستهانة والإهانة وتسم من تُطلق عليه بالغفلة أو الغباء. وفي قواميس اللغة الفصحى، التي قلبتها لاحقاً، تعني: القصير، الغليظ المجتمع بعضه على بعض. سمعتُ اسمي وأنا محمول: سليم نوح القشمر. ثم أُلقيت على الأرض فألمني ظهري. قالت أُمي أول صحوتي: "كنا نستلمكم جثثاً مع المهوية والرعب يخرسنا". قلت: وجدي؟ قالت: بخير، لم يضربوه كثيراً، لكنهم حلقوا لحيته وشاربه ورأسه مثل الجميع.

عسرفنا في اليوم التالي أن ثلاثة رجال منا قد قُتلوا - جدي يقول استشهدوا - أثناء الاشتباك وسط الدخان أمام المحافظة، ولم يُصب أحد من الشرطة. في اليوم الثالث استطعنا نحن الشباب أن نهض ونتحرك فزرت جدي على الفور لأجدته في أوج قوته وغضبه. يفكر بالاتصال بأصدقائه من شيوخ العشائر والقرى الأخرى ممن تعلموا معه القرآن على يدي الملا عبد الحميد، كما يفكر بالاتصال بأصدقائه من شيوخ عشائر الأكراد في مخمور وأربيل والتركمان في كركوك والشبك في الكوير وأصدقائه من اليزيديين في سنجار الذين كانت تربطه بهم علاقة ثقة طويلة أيام متاجرته بالبصل، كما فكر برفاق قدماء من المسيحيين في قرقوش وتلكيف الذين شاركوه القتال أيام الإنكليز، وسادة في النجف وكربلاء يعرفهم أيام كان يسافر إلى هناك ليحلب بعض الكتب وأصدقاء من البصرة أيام عمله في الموالي.

كسان جدي يفكر بمعاودة الهجوم مرة أخرى ويبدو أن الحكومة قد علمت بهذه الاستعدادات فأعادوا أبي إلى قرية الصُبح عند الصبح حليق الرأس واللحية والشاربين، وقد سُلت ساقه اليسرى والتوت قدمه وتورمت محترقة لكثرة ما أوصلوها بالكهرباء.. وحين كان يطلب منهم تحويل السلك إلى اليمين، على الأقل، كانوا يضعونه على خصيته حتى اکتوتنا.. لقد تأخر شفاء أبي وحين شفي صار أعرج ولم ينحب بعدنا نحن الستة الذين كنا. وكف عن حلمه باثني عشر ولداً.

قال له جدي: لقد عضّك. أحابه أبي: سأعضّه. فسأله: كيف؟. قال بعد أن أخرج من جيبه رصاصة مسدس الفتى، التي جعلها، لاحقاً، ميدالية في سلسلة مفاتيحه: سأدخل الرصاصة المتبقية فيه، قال "فيه" ولم يقل "في موخرته" لأنه لا يجرؤ على ذكر كلمة نابية أمام جدي أبداً أبداً.. سأحلق رأسه وشاربيه، وسأكتب على جبهته

بالوشم أو بالكيمى (قشمر). قال جدي: متى؟. أجاب أبى: لا أدري، ولكنني سأفعل ذلك حتماً. أتاه جدي بالقرآن وقال: أقسم على ذلك. فوضع أبى يده على الكتاب وأقسم راضياً عما عزم عليه بعد أن استشعر الرضا في صوت جدي. وأضاف: لقد أخذ البدوي ثأره بعد أربعين عاماً وقال لقد تسرّعت. كان أبى يقصد جدية عزمه على تنفيذ قسمه مهما طال الزمن.

لاحظنا بعدها أن الآخرين من أهالي القرية، من غير المنتمين إلى عشيرتنا، قد راحوا ينادوننا بالكنى وليس باللقب كما هو معتاد، فأدركنا أنهم يفعلون ذلك أمامنا فقط، احتراماً لمشاعرنا أو خشية من عنفنا، لكن أطفالهم ينادون أطفالنا، صراحة، بـ (القشامر) عند الخصومات، وهم فيما بينهم يستخدمون اللقب الرسمي الذي سجلته لنا الحكومة في البطاقات. فقرر جدي، الكاره للنفاق، أن نرحل إلى مكان خاص.

وبعد أسبوع من التفكير أمضاه محققاً عبر نافذة مضيئه إلى نهر دجلة حيث جبل مكحول في الضفة الثانية، مكرراً صلوات الاستخارة قبل نومه. قال: إلى هناك. فجمعنا حوائجنا ووضعناها في الزوارق ليلاً. وحين صرنا وسط النهر صاح بنا: ارموا بكل راديو وتلفزيون ومزقوا كل أوراق الحكومة وألقوها في النهر. ففعلنا شاعرين بخلاصنا من عبء غامض كان يخنقنا. وزغردت امرأة حين رأت الحماس على سلوك الرجال وتعليقاتهم، فمنهم من قال فكماً: ستصلهم مزق أوراقهم في النهر، فليشربوا نقيعها. وضحك، وضحك الجميع.

كنا أقل من مائة إنسان وبضع قطط وكلاب ودجاجات وحمير وحصان واحد. حين وصلنا الشاطئ وسحبنا قواربنا على الرمل حتى استقرت، ووقفنا جميعاً تحت ضوء القمر نتلفت حولنا، تحف بنا

أصوات الأمواج وحفيف الأشجار وعواء بنات آوى ونقيق الضفادع
وصرير الخنادب في الدغل القريب.

قال جدي: كونوا آل مطلق يدأً واحدة، تراحموا فيما بينكم،
راعوا بعضكم بعضاً وارعوا نساءكم ودوابكم.. وإياكم والمنافقين
للحكومات، لا تصدقوهم ولا تصادقوهم ولا تتزوجوا معهم. ابنوا
عالمكم هنا وفق ما يريد الله وما تريدون، لا تطلبوا من الحكومة ورقة
ولا صدقة ولا مال.. أما الضروري من النفط والدواء فاشتروه من
أهالي قرية الصُبح بالمقايضة دون أن تخوضوا معهم في حديث أو
تسألوهم عن شيء.. ولا تنسوا تارككم أبداً - ناظراً إلى أبي - حين
يزداد عدد الرجال فيكم على السبعين.. بعدد أصحاب رسول الله في
معركة بدر وبعد أصحاب الحسين حفيد رسول الله في كربلاء،
اشرعوا في تفجير أعمدة الحكومة، واضربوها بيد من حديد حيث ما
استطعتم. واحملوا وصمة لقب القشامر حتى تثاروا.. لأني أخاف أن
تنسوا حقكم إذا تناسيتم الاسم الشتيمة. وليكن القرآن مدرستكم
والصيد والسباحة رياضتكم والحق محور حديثكم والحرية هدفكم
والصبر أسلوبكم والصدق لسانكم والعمل ديدنكم والذكرى
قاعدتكم.. لا تركوا للنوم إلا مرغمين. وحرمتُ عليكم أكل نتاج
المصانع وخدمة الحكومات الظالمة ولباس الشرطة ودم بعضكم على
بعض.. فهيا إلى بناء قرية نسميها اليوم بالقشامر كي لا ننسى ونسميها
بعد الثأر (الأحرار، أو الكرامة، أو المطلق).. اللهم آدم علينا حبنا
للحرية وكرامة ابن آدم، وأمتنا كما تريد أو كما نريد لا كما
يريدون.. آمين يا رب العالمين.. ورددنا جميعاً بطقوسية صادقة.. آمين.
فتردد الصدى في الجبل والغابة وانعطافة النهر وسط سكون الليل..
آمين متضخمة كصوت ملايين الحجاج أو جيش يتأهب للحرب..

فزادت رهبة الصدى وحماستنا من حماسة جدي فواصل الدعاء تاركاً
لنا فسحة من الصمت بعد كل عبارة كي نُؤمن عليها: اللهم إنا نعوذ
بك من العجز والكسل (أمين)، ونعوذ بك من الجبن والبخل (أمين)،
ونعوذ بك من الدين وغلبة الرجال (أمين)، ونعوذ بك من الفقر إلا
إليك ومن الذلّ إلا لك ومن الخوف إلا منك (أمين)، ونعوذ بك من
شر الخلق وهم الرزق وسوء الخلق.. ونعوذ بك من شماتة الأعداء
وعضال الداء وخيبة الرجاء يا أرحم الراحمين ويا رب العالمين. (أمين..
أميين).. ثم حملنا أشياءنا وتوغلنا في الغابة، كلٌّ يبحث عن بقعة ليبنى
فيها بيته الجديد.. وما زلتُ أسمع صدى تلك الـ (أمين) النادرة في
رهبتها حتى اليوم.

كنتُ أحب والدي دون أن أفهمه. أستشعر فيه أكثر من نوح واحد يجيد المواثمة بينهم. أما أمي فقد كان ازدواجها واضحاً مما يدعو لمحبتها ببسر. لم أدرك عظم محبتي لها إلا أيام غيابي عنها في الجيش والآن في الغربية، ذلك أننا كنا نجدها حاضرة دائماً لامتصاص غضبنا ومشاركتنا الألم والفرح وضامنة لنا قيمة الطعام وغسل الملابس والتذكير بالواجبات ونقل أوامر كبارنا لصغارنا ومنع الكبار من ضرب الصغار وتهددنا للنوم على إيقاع حكايات الأميرات العاشقات والسعلوات والخنافيس والطناطل والسندباد. فيما لم أسع يوماً لفهم ابنة عمي عالية. أحبها بلا سبب وبلا شروط، لأنها، هي الأخرى، قد أحبتني بلا أسئلة صعبة.. لقد تعلمتُ ذلك منها، على الرغم، من أن الجميع كانوا يرون في جدي مُطلق نموذج المعلم الوحيد، لكنني أدرك الآن بأننا جميعاً لم نأخذ عنه شيئاً تجوهر في أصل ذواتنا، بمقدار قوة اتخاذنا له معيارنا الضاغط والندي الذي يجبرنا على نحت ذواتنا الخاصة في الخفاء.

أبي أكبر إخوته لذا قد وقع عليه العبء الأكبر من العمل ومن ممارسات جدي لتصوراته عن التربية الصارمة وتغذيته بمفهوم الطاعة العمياء للوالدين، "لأن رضا الله من رضا الوالدين". فلم يرفض نوح طلباً أو أمراً لوالده أبداً أبداً. أذكرُ، مثلاً، أنه قد عاد ذات ظهيرة تموزية منهكاً من عمله في شركات النفط في كركوك، وبما أن من عادته الدخول أولاً إلى صالة الضيوف للسلام على جدي الذي يقيم فيها

وحيداً مع كتبه منذ موت جدي، ثم يأتي إلى البيت يقبلنا ويصافح أمني.
في تلك الظهيرة أمره جدي أن يذهب لإصلاح مضخة الماء العاطلة في
المزرعة، فترك حقيبته هناك وتوجه فوراً إلى الحقل دون أن ينعطف إلى
البيت ليسلم علينا أو يستحم ويرتاح ويتناول غداءه، كما هي عادته.
ولم يعد إلا بعد أن أصلحها عند غروب الشمس. أبي لم ينظر في
عيني جدي أو حدق في وجهه على الإطلاق. دائماً ينظر إلى الأرض
مستمعاً إلى كلامه بانتباه، تجاوز عمره الأربعين عاماً وهو يقول إنه
يستحي من النظر إلى وجه أبيه. وسألني ذات يوم هادئ قرب شاطئ
النهر، بنبرة تشبه الفضول والتوسل: كيف تنظر أنت إلى وجهه؟.. هل
نظرت في عينيه؟.. هل نظرت في عينيه؟!

وأود لو أسأله الآن: فكيف قتلته إذا؟!.. وكيف وصلت إلى
هنا؟.. متى؟.. ولماذا جئت إلى إسبانيا تحديداً؟. هل جئت تبحث عني
مثلاً؟. لكن احتضانه الأول لي كان حياً، إن لم أقل بارداً!!.. وكأنه
لم يكن راغباً به!.

وجدت أبي صدفة ليلة السبت الفائت في مدريد، حيث يدب
الضجر إلى نفسي نهايات الأسابيع فأدب في الشوارع والأزقة المظلمة
بلا هدف، أدخل أي مرقص أو بار، فلم أصدق نفسي ولم أصدق ما
رأيت في مرقص يغص بمختلف الجنسيات من مهاجرين وسائحين
وأسبان طبعاً، هيبين ومثليين ومهمشين وتجار دخان وأبناء ليل وأنصار
سلام وعنصريين ومعارضين عولمة وحليقي رؤوس.

هذا الرجل حليق الشاربين. صلغ خفيف فوق الجبهة. طويل
الشعر مربوطه إلى الخلف وخصلتان صغيرتان منه مصبوغتين بالأحمر
والأخضر. ثلاث حلقات فضية تتدلى من أذنه اليسرى؛ أقرط.. أيعقل
أن يكون هذا أبي؟!.. أهذا هو أبي حقاً؟!.. فأراني ميدالية مفاتيحه

التي اعتدنا على مشاهدتها منذ ما بعد حادث هجومنا على مبنى محافظة تكريت. الميدالية: رصاصة مسدس صغيرة، كان قد أفرغها من البارود وأدخل في قفاها رأس سلسلة المفاتيح. بقيت صافناً في وجهه متشككاً، فسارع بالكشف لي عن قدمه العرجاء. عندها تيقنت.. وتعانقنا.

متى؟ وكيف؟ ولماذا جاء أبي إلى مدريد؟؟.. دوختني هذه الصدفة/اللقاء على مدى ثلاثة أيام. وبعدها رحلت أستعيد هدوئي وأهضم المفاجأة راضياً بالفاء اللامعقول، معاوداً التحديق في لوحات سلفادور دالي كي أعرف الواقع. فمنذ هروبي خارج أقواس العراق قبل عشرة أعوام وطلت نفسي على النسيان حتى توطئت، دون أن أدرك أنني كنت أنفذ قرار قريبي الأخير بالانحلال.. لا رسائل بيني وبينها، لا أخبار عنها إلي ولا عني إليها. كان أبي آخر من رأته هناك، رأته من نافذة المضيف دون أن يراني، وغادرت مع الفجر دون وداع. بعدها لم أر أحداً من قريبي واقنعت نفسي حد اليقين بأنني لن أرى أحداً منها، لن تراني ولن أراها أبداً.. فحتى لو أردت ذلك فلن تقبلني هي لأنني قد خنتها حين هجرتها سراً بعد أن تعفنت السبع عشرة جثة فيها وأصبح هواؤها لا يطاق. لذلك ظللت بعدها أتحاشى الروائح الكريهة لأنها ستذكري بكل التفاصيل التي أسعد بنسيانها التام أحياناً. أرمي أكياس الزباله قبل امتلائها. أختار الطوابق الرابعة للسكن بعيداً عن المجاري الآسنة في الأرض. أرش العطور في الحمام وتحت إبطي. أتحاشى المرور جوار شرطي أو وزارة ولا أتابع الأخبار في وسائل الإعلام.. لكن أبي أحضر كل شيء بحضوره المفاجئ هنا، وعبر ترديده الدائم لعبارة ما كنت لأتخيله ينطق بمثلها وهو المهذب الخجول المستدين: "هذا العالم جايف".. وحين أروضخ للاستحضار وأسأله عن قريتنا (القشامر) يقول: "كل العالم قشامر".

مع أبي بدأت قرية القشامر، وعلى يديه تم إنقاذها من الدخول إلى سراديب الأمن العام ثانية، وموت (أو ربما بقتل) جدي أمهاها، وعلى يديه تبدأ من جديد، هنا في مرقص مدريدي مظلم كتب على بابه (Discoteca Al-Kashamer) وتحتها بخط أصفر: "في البدء كانت الحرية ونريدها أن تكون حتى النهاية". وتحتها، بحجم الخط نفسه لكن بلون أزرق: "سرحب بك أكثر كلما تحمرت أكثر".

أريد أن أسأله عن أشياء كثيرة: أمي وأخوتي وأصدقاء طفولتي وقرينتنا بعد السبع عشرة جثة، وعن ابنة عمي عالية.. لا.. إن عالية قد غرقت في النهر.. فلماذا لا أريد تصديق ذلك على الرغم من أنني رأيتها بنفسني؟!.. أريد أن أسأله: هل قتل جدي حقاً؟.. لكنه مازال قليل الكلام، وكلمما ذهبت إليه في المرقص ليلاً وجدته محاطاً بشلة من أصحابه الأسبان والهولنديين والألمان والإنكليز. أغلبهم قد حلقوا أو صففوا أو بعثروا شعر رؤوسهم بأشكال غريبة ولطخوها بأصباغ فاقعة، تتدلى من أحزمتهم حفقات المفاتيح وسلاسل شبيهة بتلك التي تربط الكلاب المنزلية. تُرصّهم المعادن في كل جزء من ملابسهم الغريبة وتتدلى من آذانهم وأنوف وسُرر بعضهم حلقات فضية أو بلاستيكية، بمن فيهم أبي الذي يرتدي قميصاً مشجراً فاقع الألوان شابكاً في أذنه اليسرى ثلاث حلقات متتابعة الأحجام، لكنه لم يقص شعره مثلهم على شكل ديك أو أسد أو نعجة وإنما تركه يطول بعد أن زحف صلح خفيف على جبهته ثم ربطه من الخلف على شكل ذيل حصان أو مثل بنات المدارس صابغاً خصلتين منه إحداهما بالأخضر والأخرى بالأحمر.. أهذا هو أبي حقاً؟.. المتحلقون حوله، الصاخبون بالضحك والسدخان وصفح أفخاذ بعضهم كانوا شباباً باستثناء امرأة في الأربعين كان يحتضنها بين الحين والآخر وتقبله. وهي

كثيرة الكلام، على العكس منه، تعلقو ضحكاتها على ضحك الجميع.
قالت لي إن اسمها روسا وهي من برشلونة لكنها هنا في مدريد لأنها
تحب أبي.

مرت ثلاثة أيام ولم استطع الانفراد به. أدعوه لنخرج معاً إلى
مقهى أو أن يأتي إلي بيتي: أسكن هنا.. قريب، في شارع فومنتو على
بعد عشرة دقائق. فيقول: غداً. وحين أسأله في الغد يقول: غداً.
ويعتذر عن الأمس: أنا مشغول جداً يا سليم - ولا يقول يا ابني -
كما ترى، ولكنني أعدك.. غداً.. غداً.. بالتأكيد - ولا يقول إن شاء
الله -. إلى أن جئته ذات ظهيرة فبادرتي: تعال أحلق لك رأسك. ودون
أن ينتظر إجابتي سحب مقعداً صغيراً من إحدى الزوايا إلى وسط صالة
الرقص، وسط مخلفات ليلة الأمس، فجلست، وصاح: فطومة، هاتي
ماكنة الخلاقة. فتركت السمراء غسل الكؤوس وتناولت علبه من على
الرف خلفها. أتته بها: تفضل سيدي. صفعها على مؤخرتها برفق، قبل
أن تنسحب: شكراً. فعادت إلى الكؤوس، وسألته: أهي عربية؟. فقال:
فاطمة؟.. نعم، إنما مغربية.. فتاة طيبة.

كانت بقية عاملات البار، الإسبانيتان، رائحات غاديات حولنا
مذكرات روسا بالنواقص من الشراب والمناديل وعلب الدخان، ونوح
يسوزع عليهن الأوامر بالإشارات والابتسامات، فيما ماكنة الخلاقة في
يده، في رأسي، وصاحبته البرشلونية تدخل وتخرج حاملة سجل
الحسابات ومتصلة بالهاتف مع شركات التزود بالبيرة والمشاريب،
وطالبة من محل الكرزات أن يبعث لها بعشرين كيلو من الزيتون
وعشرين من الكرزات وعشرة من حب زهرة عباد الشمس، وبسرعة،
يسوزع الدخان ليزودها بصندوق من كل نوع، علبه قداحات وعلبه
علوك، وبسرعة، فيأتون بسرعة وتأمّر العاملات بترك التنظيف، الآن،

وترتيب البضائع. يراقبهن أبي متوقفاً عن قص شعري، ثم سألتني حين رأى الأمور تسيير على ما يرام: وأنت كيف حالك؟، ماذا تعمل؟. قلت: بخير، أعمل سائقاً في شركة لتوزيع الصحف من الساعة السادسة فجراً وحتى الحادية عشرة صباحاً. وقال: هل لديك امرأة؟. قلت: لا. صاح بروسا بحملة هي مزيج من الإنكليزية والعربية، ففهمت منها كلمة (بخشيش) التفتُ إليها لأرى وجهها يمانع عبر التفضين وغمزة، لكنه مط اسمها مؤكداً: روووسا. فاتجهت منصاعة إلى صندوق الحساب. كلنا نسمع خرخرشة القطع النقدية. وضعت شيئاً في كف العامل الذي جلب صناديق البيرة. فعاود أبي الحلاقة وسألني: ماذا تعمل في الوقت المتبقي؟. قلت: أقرأ وأكتب أحياناً وأذهب إلى السينما. قال: وهل قرأت لوركا وألبرتي بالإسبانية؟. قلت: نعم ولكن شعرهما لا يعجبني كثيراً، أفضل عليهما خوان رامون خيمينيث وبيثته ألكساندره. قال: للأسف أنا لا أتحدث الإسبانية حتى الآن، بضع كلمات فقط، وماذا تكتب.. شعر؟. قلت: قصائد قليلة، أكتب القصص أفضل، ونشرتُ بعضها في صحف المعارضة العراقية في لندن. تساءل باستغراب: معارضة!؟.

فكرت أن استثمر مدخل الكتابة لأسأله عن كتب جدي، عن قرينتا وأمي وإخوتي وأصدقاء طفولتي وابنة عمي (لا.. ابنة عمي ميتة) ومقتل جدي فقلت: أفكر بكتابة رواية عن قرينتا، ولكنني متردد في فضحها. قال: أكتب ما تشاء فلن يحدث أسوأ مما حدث.. هذا العالم جايف.

إنها المرة الأولى التي أسمع فيها أبي ينطق بكلمة كهذه. أدركت لحظتها بأن تغيرات كثيرة قد طرأت على شخصيته، وأنه يُخفي الكثير، وثمة تجارب مهمة قد مرَّ بها في السنوات العشر الماضية التي افرقت فيها

عنه.. أردت أن أسأله عن كيفية وصوله إلى هنا، وعن روسا هذه. لكنه صفع رأسي مداعباً وقال: خلاص انتهت الحلاقة.. هيا اذهب إلى الحمام واغسل رأسك.

حين مررت من أمام البار ابتسمت فاطمة، شفتاها مثل تينة مقسومة كما يقول هيرمان هسة في (سدهارتا)، وعيناها سوداوان واسعتان، كثافة رمشيها تزيد من حدودهما سحراً وهي تمسح كأساً بصدريتها، فابتسمت لها أيضاً دون نسيان صفعه أبي لمؤخرتها قبل قليل. دخلت الحمام ففاجأتني صورتي في المرآة حليق الرأس، حلاقة رقم واحد، أو صفر؟.. مثل بعض أصحابه وبعض زبائنه الليليين. تلمست رأسي كمن يتحسس بيضة غريبة، فلم أقص شعري بهذا الشكل إلا حين حلقوه لي أيام الجيش غصباً.. حيث ملامح العريف خزعل منتشية بحلاقة شعرنا أول دخولنا للمعسكر. كانت رؤوسنا بين يديه لعبة مسلية يحركها بعنف، بفضاظة ومَرَح، إلى كل الجهات كأنه يتعمد استفزازنا.

شعرت بغربة شكلي عني للحظة فعزمت ألا أفكر بالأمر طويلاً لأن الذي يهمني هو الانفتاح على أبي والتقرب منه. أنزلت رأسي في حوض المغسلة تحت الحنفية وسكبت عليه الماء البارد أغسله، ثم رفعته باحثاً عن قطعة صابون فلم أجد. لذا عاودت إنزاله تحت خيط الماء، وقلت: هذا كاف لإنزال بقايا الشعر المقصوص فقط، وسوف أستحم حين أعود إلى شقتي. عندما رفعت رأسي مرة أخرى وجدت فاطمة تقف إلى جانبي مبتسمة في المرآة، وفي يدها منشفة مدتها لي قائلة: "نعيماً". شفتان بارزتان، وسط سمرتها الخفيفة، شبيهتان بالرسوم الأفريقية، وعينان واسعتان موطرتان بالكحل وسواد الرمشين. قلت: شكراً. وحاولت النظر إلى صدرها فهو أشد ما يشدني إلى النساء منذ

عشقي الأول لابنة عمي عالية التي كانت تدهن لي تهاديها بالتمر كي أمصهما. لكن فاطمة استدارت عائدة إلى غسل الكؤوس فرأيت مؤخرتها المرفقة بمشهد كف أبي الصافعة له برفق.

نشفتُ رأسي ونظرت في المرآة. قلت: ليس سيئاً تماماً. وخرجت. فقال أبي من زاوية دكة الموسيقين وهو يرتب أسلاك الميكروفونات: هل تريد أن أصبغه لك بالأشقر؟. سمعته جيداً لكنني تساءلت: ماذا؟. قال: أصبغه لك بالأصفر مثلاً؟. قلت: لا.. هذا يكفي.. هكذا جيد. وأضفت: أنا ذاهب، هل تأتي معي؟.

تناول المكينة التي في الزاوية وقال: لا.. أنا مشغول الآن.. دعها إلى وقت آخر.. غداً مثلاً.

قلت: حسناً.. أنا ذاهب إذاً.. شكراً على الحلاقة. واقتربت من البار، أعطيت المنشقة لفاطمة وأنا أنظر إلى عينيها، وإلى.. لم أتمكن من رؤية صدرها أيضاً لأنها كانت تمسح كأساً بصدرتها: شكراً. وابتسمت. اقترنتُ بها صورة أبي يصفع مؤخرتها. أراها فأراه. وعند الدرج الصاعد إلى باب الخروج كانت روسا تواصل توجيهاتها للفتاتين بأماكن التنظيف وتصنيف صناديق الأشياء القادمة. ودعتهن، وصاحت بي قبل أن أبتعد عن الباب: تعال أيضاً في المساء.. ستكون السهرة جميلة. قلت: لا أدري سارى، إلى اللقاء.

سرت في الزقاق المؤدي إلى تقاطع سانتو دومينغو قاصداً عبوره باتجاه بيتي، فيما يحتل أبي رأسي بـ "هذا العالم جايف" وبكفه الصافعة لمؤخرة فاطمة.. كيف يفعل ذلك وهو الذي جرننا لمحاربة الحكومة لمجرد أن أحدهم قد صفع مؤخرة أختي إستيرق؟!.. أحاول تجميع ما أتذكره عنه كي أفهم هذه التحولات.. بالتأكيد هو أبي؛ الصوت والجسد الطويل المتين بالعضلات والقدم العرجاء والميدالية

الرصاصة .. أردت ترتيب كل ذلك لذا دلفت إلى مقهى في آخر
التقاطع. جلست أمام النادل واتكأت على منصة البار. طلبت قهوة
بالحليب وكأس ماء. أخرجت سيجارة أذحنها بعمق حقيقي. شاهدت
وجهي في المرآة المواجهة محصوراً بين قنيتين، فتحسست رأسي دون أن
أنشغل بالخلاقة الجديدة طويلاً لأن الذي يشغلني هو أبي .. الجديد.
أحاول تفسير ما يحدث وتهيئة نفسي لتقبله باتساع وواقعية .. إنه هو
أبي دون شك .. أتذكر كل علاقتي به جيداً .. أعرف شخصيته
السابقة التي تركتها في العراق، في قريننا قبل عشرة سنوات .. إنه أبي
وإن كان يبدو الآن شخصاً مختلفاً تماماً .. إهدأ يا سليم .. نعم .. فلاهدأ
قليلاً .. وأحاول ترتيب الصورة ..

مثل بقية إخوتي، لم أناده بأبي حتى بلغت العاشرة حين استطعت التمييز، فقد كنا نناديه باسمه: نوح. بينما نقول لجدي: يا أبي. ذلك أن جدي هو الحاضر معنا في البيت أما أبي فكان غائباً للعمل في شركات النفط في كركوك. لا يأتينا إلا في اليومين الأخيرين من كل أسبوع حاملاً حقيبتيه المليئة بالهدايا وكتباً أجنبية وملابس متسخة. تقول أمي، عندما تريد حثنا على العمل، انظروا إلى والدكم، كان فتى في سنكم حين بدأ يشتغل في كركوك.. أتذكر ذلك اليوم؛ بعد زواجنا بشهر ويومين تماماً. منذ أكثر من عشرين سنة؛ بدأ كحارس ليلي، ثم حداد، ثم ميكانيكي، وبعد تفوقه في دورات اللغة عينوه رقيباً على العمال أو بمثابة مترجم وسيط بين السادة الألمان والعمال العراقيين. لم يحرص نوح على إفهامنا طبيعة انتسابنا له فقد كان موكلاً أمر تربيتنا إلى جدي مثلما ظل موكلاً شخصيته الخاصة إليه وطاعته حتى موته، (أو قتله له..!)، كذلك لم يقدمني هنا، في مرقصه، على أنني ابنه وإنما قال: سليم. فقط. وربما أن روسا هي وحدها من أعلمها بذلك لاحقاً حيث أخذت تعاملني بمودة خاصة بل وزائدة أحياناً.

أبي.. أو نوح ضخم الجثة قوي العضلات هادئ الطبع، أما جدي فشيخ نحيف يتكى على عكاز لامع من الخيزران في رأسه رأس نسر بعينين من خرز أزرق أهدها له صديق باكستاني تعرف عليه في الحج عند طوافهما حول الكعبة، لكن جدي لم يستخدم عصاه هذه إلا

بعد أن حك ملامح رأس النسر وأخفاها بحيث حوَّله إلى مجرد كرة أو
بيضة. وبما أنه لم يستطع اقتلاع عينيه الخرزتين فقد اكتفى بتشويههما
برأس سكينه قصاصة الأظافر. قلنا: لا.. لماذا يا جدي؟ قال: هذه
أصنام. ومن يجسد صورة كائن حي سيطلب منه الله في الآخرة أن يثبت
فيه الروح، وبما أنه سيعجز لأن ذلك من خصوصيات قدرة الله، عندها
ستحل عليه العقوبة.

أمي تقول إن جدي كان ضخماً وقوياً مثل أبي.. وهي بذلك
تظلمن نفسها على أن كرش أبي ستختفي بمرور الوقت ويعود
رشيقاً.. دون أن ترى سبب نخافة الجدد كونه قد أصيب بمرض السكري
لهوسه بالتهام الحلوى والتمر، فلم يكن يخلو بيتنا أبداً من كيس تمر
يتكئ في إحدى زواياه وعلبة حلوى أصابع العروس مدسوسة بين
كتبه... كما أثر عليه موت جدي، ثالث زوجاته، فراح يذبل وينشف
شيئاً فشيئاً مثل ضرع بقرة مريضة حتى صار نحيفاً إلى هذا الحد.. لكن
قوة روحه وصوته لم تتأثرا.. بل ربما زادت، أصبحتا تعويضاً عن فقد
لقوته الجسدية بتحويلها إلى أوامر يفرضها على الآخرين بقناعات
صارمة لينفذوا ما يريد. وكان لخيزرانتة حضوراً لا يقل مهابة عن
حضوره حين يهزها، فنسمع أزيز الهواء حولها، مُهدداً بعنف كلما
غضب أو أصدر أمراً.. كنا نخافه ونخافها على الرغم من أننا لم نره
يضرب أحداً بما أبداً، وربما كان للتخيل دوراً في تضخيم مهابته أكثر
مما لو كنا جربنا ضرباتها. وبما يزيد من تصورنا لبطش غضبه - عدا
ذكرى عضه لرقبة الكلب صغيراً - حكاية قطعه لإصبع زوجته الأولى
حين اختلفا، بعد شهر من زواجهما، رافعة صوتها المعترض ومحدرة من
أن تشتكيه إلى أخيها حمد، وهي تمد إصبعها السبابة نحوه كعلامة
تهديد، فاستشاط مطلق غضباً فهو متورم الاعتزاز بنفسه. أمسك

بسبابتها عند حد عقلته العليا، وتناول سكيناً كانت إلى جابه على حافة الطباخ. قطع العقلة ووضعها في جيبيها، رأس إصبع نازف بحم حمصاة أو ثمرة. ثم أركبها على حمارها الذي جلبته معها كهدية من أهلها بمناسبة العرس، وقادها إلى خارج القرية وهي تمسك إصبعها المبتور صارخة، تنظر إليه وإلى جدي.. غير مُصدقة. وجَّهها صوب قريتها وقال: أعطني إصبعك لأخيك حمد وقولي له هذا إصبعي الذي هددتُ به الملا مطلق باسمك.. وأنت طالق بالثلاث. وضرب حمارها بقوة على قفاه فانطلق مهرولاً تاركاً في آثار حوافره قطرات من دمها. لم تعد بعدها أبداً وقيل أن حمد قد قال لها: تستحقين ذلك، كيف تهددين زوجك؟.. لو كنتُ مكانه لفعلت الشيء نفسه.

أما زوجته الثانية فلا نعرف عنها شيئاً سوى أنها ماتت بالسرطان ولم تُنجب، فيما كانت الثالثة، جدي، هي التي منحت كل أبنائه التسعة، أكبرهم نوح. وكان جدي هو الذي يقوم باختيار أسماء أولاده وأحفاده وكل المتسبين إلى نسله قائلاً: إن الله هو الذي اختار أسماءكم وليس أنا. ذلك أنه ما إن يُولد أحدنا حتى يتوضأ، يصلي ركعتين، ويجلس عند رأس الوليد ثم يفتح القرآن كيفما اتفق، ينظر إلى وجه الطفل أو يغمض عينيه ويضع إصبعه على الصفحة، فيكون الاسم هو تلك الكلمة التي وقع عليها إصبعه. أما إذا كانت حرفاً أو وصفاً أو ليس في الآية ما يناسب المولود من حيث جنسه ذكر أو أنثى، فيقوم بإغماض عينيه مرة أخرى ويحول الإصبع عن موضعه في الصفحة نفسها.. وهكذا، مثلاً، انفتح القرآن على أول صفحة من سورة (الإسراء) حين ولد أبي، ووقعت إشارة الإصبع على آية: "ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً". وحين ولدت أمي توأم شقيقتي سندس وإستبرق وقع الإصبع على الآية 31 من سورة (الكهف):

"أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار يُحَلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خَضِراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتِزْقَ مَتَكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً". واسم عالية ابنة عمي جاء من سورة (الحاقة) في الآيات 22-23: "في جنة عالية. قطوفها دانية". وبالنسبة لي فقد انفتح القرآن على سورة (الشعراء) ووقع الإصبع على: "يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم". ولا أدري فيما إذا كان لسورة الشعراء دوراً في علاقتي بالشعر؛ قراءتي الكثيرة له ومحاولاتي المتواصلة في كتابته، على الرغم من تلاشي الأمل في أن أصبح شاعراً ذا أهمية تُذكر.. كما كنت أحلم في صباي، أم أن لعالية الأثر الأهم في دفعي لكتابته.. من أجلها؟. بعثت لها أولى قصائدي مع إستيزق فخافت مني، والسبب هو جدي، أيضاً، الذي كان يروي لنا حكايات الفرسان العشاق الشعراء ويتلو بعض قصائدهم المحتشدة بالخيال والليل والبيداء والسيوف ورؤوس الأعداء المتطايرة. وربما كنت مدفوعاً إلى الشعر بسبب أبي أيضاً، الذي يحفظ (الديوان الشرقي الغربي) لغوته بالألمانية، وإن كان لا يفقه كل كلماته. فلقد أهداه له صديقه الألماني كريستوف رئيس قسم العمال في إحدى شركات نفط كركوك قائلاً: اقرأ هذا، إنه منا ويجب نبيكم. فحفظه أبي في إجازة نهاية الأسبوع رائحاً غادياً على شاطئ دجلة، هازماً ذراعيه متخيلاً الأمواج والحصى وأشجار الصفصاف جمهوراً.

كنت حينها صغيراً على الجرف أرقبه، وتخيلت أنه يحضر لامتحان، لأن أخي الأكبر حكيم كان يفعل الشيء ذاته أيام الامتحانات. في إحدى التفاتاته، نحو جمهوره، رأيته ونادى علي فنزلت مهرولاً حتى وصلت إليه، فجلس على صخرة ودلى قدميه في الماء. أجلسني على ركبتيه وراح يحدثني عن غوته بإعجاب و يترجم لي

بعض مقاطع كتابه. لم أفهم منها شيئاً لأنني كنت منشغلاً بالتمني؛ أن أكون كبيراً مثله كي تصل قدماي إلى الماء، لذا أجلت عملية الفهم أيضاً حتى أكبر. كان أبي يكرر: "الألمان شعب عظيم، تخيل أن كريستوف هو رئيسي في العمل لكنه صديقي أيضاً، وهو يقول لي: أنتم اخترعتم طائر الفينيقي بخيالكم ونحن جسدناه في الواقع.. زوجته ساينه شقراء جميلة، تكتب الشعر وتعمل معنا في النفط.. الألمان شعب عظيم يا سليم.. شعب عظيم". ولكثرة ما تحدث أبي عنهم كنت أتخيلهم مثل أهل الجنة الذين وصفهم لنا جدي، أو مثلنا حين ندخلها في الحياة الآخرة: الجميع شباب، طول الشخص ثلاثين متراً، لا يمرض ولا يشيخ ولا يموت، يأكل ما يشاء متى يشاء، يشير لأي طير بإصبعه فينزل من أغصان شجر الجنة ويحط في طبق أمامه مشوياً شهياً للأكل. فيأكل حتى يشبع، ثم نلتم عظام الطير وبلحظة يستعيد هيئته وحياته ويعود إلى غصنه. لا تتغوط هناك وإنما تتعرق عطراً، لنا صور فخمة ونساء جميلات من حوريات الجنة، إذا أطلت إحداهن الآن من السماء سيضيء نور وجهها الأرض. نضاجعهن ويعدن أبقاراً.. نغرف للشرب من أنهار من الخمر والعسل واللبن وما تشتهي الأنفس.

أبسي لا يعمل من تكرار: "الألمان شعب عظيم".. لذا تخيلتهم كذلك. تعلم أبي الألمانية والإنكليزية من الأجنب في شركات النفط، وكان يحفظ أيضاً مقاطع من هاملت شكسبير، وبالطبع يحفظ القرآن كاملاً لأن جدي يحرص على تحفيظنا إياه جميعاً، قائلاً بأنه سيكون أنيسنا في وحشة القبر ومحامياً يدافع عنا أمام محكمة الملكين ناكر ونكير؛ فإذا مات الإنسان ودفنوه ثم انسحبوا ليركوه وحيداً دخل عليه الملكان يمتحنانه لذا: إن سألوك من هو ربك قل: الله، ومن هو نبيك قل: محمد، وعن دينك قل: الإسلام، وعن كتابك قل:

القرآن. ومن بين كل أفراد عائلتنا وحده أبي من ظل يحتفظ بالقرآن كاملاً في ذاكرته، لذا كان جدي يستعين به حين تقدمت به السن وصارت نخذه الذاكرة. أما نحن أبناء الأجيال اللاحقة فقد حفظنا بعض الأجزاء ونسيناها باستثناء قصار السور والآيات المرتبطة بأسمائنا، لأن جدي كان يحرص على أن يعرف كل منا، على الأقل، الآية التي انبثق منها اسمه وهو يقول: إن أسماءكم قد اختارها الله، وأصلها هنا في كتابه.. انظروا. ويشير لكل منا على آيته بإصبعه كأنه يعيد عليه مشهد تسميته الذي لم يره.

وقد اتبع الكثيرون من أهل القرية طريقته هذه بالتسمية، فمنهم من يصيبه الحظ باسم نادر جميل ومنهم من يجلب له اسمه المشاكل والتعب النفسي مثال ذلك ابن خالتي هدى الذي وقع إصبع أبيه على كلمة (صراط)، فكنا حين نتخاصم معه في اللعب صغارا نناديه (صراط)، وفي المدرسة نُضيف النقطة على الصاد كلما تمكنا من دفاتره في غيابه. لذا نشأ على عكس فطرته في الهدوء وحياء أهله؛ ولداً شرساً كثير التعارك، مُعذّباً من حمله لهذا الاسم الذي لم يسترح منه إلا حين جاءت جنته مع جثة أخي حكيم وولدي أعمامي وولد خالتي ضمن السبع عشرة جثة التي تعفنت.

كنا نشاكسه ونستغفزه ثم نركض مبتعدين عنه، وحين يُدرك أننا قد فلتنا من متناوله وأن حجارتنا التي يرمينا بها لا تصلنا، يقول بصوت عالٍ وحُسرقة: أتسخرون من اسم منحني إياه الله؟!.. ألا تخافون جهنم؟!.. أتضحكون من الناقد أم المنقوش؟! فنخجل عندها فعلاً ونخاف الله ونستغفره. حين نتذكر حكاية جدي لنا عن رجل قال أن اسمه مالك بن دينار (ضحكنا على اسم دينار حينها فنهَرنا وأكمل الحكاية) كان ماراً في طريقه ذات يوم فصادفه حمار (أو كلب، لا

أتذكر الآن بدقة). كان مُبعَماً بشكل غريب، بقعاً سوداء وسط يياضه، على عينيه وبطنه وأذنيه وذيله، فضحك مالك.. حينها التفت الحمار إلى مالك ونطقَ قائلاً: أتضحك من الناقد (ويعني الخالق) أم المنقوش (ويعني نفسه)؟. فخرَّ مالك ساجداً نادماً وظل يبكي أربعين عاماً ويستغفر الله على ما اقترف من سخرية وإهانة تجاه أحد مخلوقاته.. حتى غفر له الله بعد أربعين عاماً قضاها بالنحيب ورعاية كل حمار يراه.

وحدها عبارة: "أتضحك من الناقد أم من المنقوش". كانت تردعنا عن مناكدة صراط، لكننا سرعان ما نعاود الأمر حيث ننساها سريعاً، وهكذا إلى أن مات وارتاح منا ومن اسمه. أحب صراط أحتي إستيرق لذا كان أشدنا حماسة يوم المحوم على مبنى المحافظة في تكريت يوم قُتل منا ثلاثة - جدي يقول استشهدوا -، فازدادت إستيرق ذبولاً وهي تشعر بذنب مقتلهم، ترفض الطعام.. وكلما أجبرتها أمي على شرب حساء الدجاج تقيأته. كانت تزداد هزلاً ونحافة بحيث كنا نراها في تواصل ضمورها وكأنها تتعد قليلاً قليلاً في الفراش، كأن الفراش أفق، نفوس هناك وتبرز نتوءات عظام كتفها ومفاصل الأصابع وكرتان عظمتان في رسخها.. وكفّت أخوات صراط عن تسميتها بـ (القَصْبَة) وعن منادقن لصراط: يا عاشق القصبه.. "فليس من الأخلاق الشماتة بالمريض"، ثم إنها صارت أشد نحافة بكثير مما كانت عليه حين أطلقن عليها هذه التسمية.

قال جدي: دعكم من الأطباء إذأ، ولا أمل إلا بعلاج الله، الشافي المعافي، وأوليائه الصالحين. ولي من صحبي الأعراء شيخ كردي صاحب كرامات، في قرية قرب شقلاوة، وهو من شيوخ الطريقة النقشبندية ويرجع نسب أجداده إلى الشيخ عبد القادر الكيلاني الذي ضرب كافرأ في الهند بنعله دون أن يتحرك من مجلسه في بغداد.

فأخذناها إلى هناك؛ أنا وهو وأبسي. كنتُ أجلس معها في مقعد السيارة الخلفي، أسندها على كتفي وأسقيها الماء فيما أستمتع بمشاهدة الحقول الخضراء الراكضة على الجانبين. وبعد عدة توقفات وأسئلة قام بها أبسي مستفسراً عن الطريق والقرية وعن بيت الشيخ، ولما كانت الإجابات حاضرة من الجميع، تأكدت لنا شهرته. صعدنا بالسيارة إلى بيته القائم على سفح جبل في أطراف القرية، وما إن ترجلنا في باحة داره حتى سمعنا دوي إطلاقاً قادمة من جهة بابه، سقطت على إثرها إستبرق من بين ذراعي وتمددت على الأرض مغشياً عليها.. وسمعنا صرخة جدي: الله أكبر.

لم أخرج من شقتي طوال ذلك المساء. أكلت ثلاث بيضات وسلطة، فلم تكن لي رغبة بالطبخ. أمضيت الوقت بالتفكير بأبي وبالتذكر محاولاً ترتيب ما حدث كي أفهم أبي الجديد الذي هنا. قضت أكثر مرة عن سريري متوجهاً إلى المطبخ أعد القهوة ومدخناً للسجائر في النافذة المظلة على فناء مربع صغير وعميق تلفت حوله العمارة التي أسكن فيها وتشابك فيه، بين النوافذ، حبال نشر الثياب المفسولة. أما قاعه ففيه بيت خشبي صغير لكلب إحدى عجائز الطابق الأرضي.

أنا أصغر سكان العمارة سناً، تليني شابة كويتية سمراء تسكن تحتي، أرضيتي سقفها. فيما تحتل الشقق الأخرى عجائز وحيدات إلا من رفقة كلب يخاطبته ليل نهار أو من مشاهدة أخبار فضائح الفنانين في التلفزيون، وكن ينظرون إلي حين نلتقي على السلم بتوحس وريبة بعد موقفي حول برميل الزباله. وازدادت هواجسهن حين رفضت الاجتماع مع مجلس الجيران لمناقشة قضية إصلاح قفل الباب الرئيسي، حين قلت للبواب: لا داعي لمضيعة الوقت هذه، قم أنت بشراء قفل جديد وبتركيه، ثم اجمع ثمنه من سكان العمارة. ذلك أنني أدركت بأن فائض الوقت لديهم يجعل من هذه الاجتماعات فرصة للثرثرة والشكوى وإرضاء فضولهن برؤية بقية الجيران عن كثب. قررت ألا أحضر اجتماعات الجيران هذه منذ العام الأول حين اجتمعنا ذات مساء عند المدخل متزاحمين وبعضنا يجلس على أولى درجات السلم فيما

البواب يتابع إشعال الضوء كلما انطفأ بعد دقيقة، كان محور الاجتماع يدور حول برميل الزباله، وأن بعضهم لا يدفع المبلغ المخصص شهرياً للبواب كي يُخرجه ليلاً ويعيده فجرأ.

العيون والأحاديث المطلية بالتهذيب تقصدي أنا. وعلى الرغم من طبيعي الهادئة، وحرصى على تجنب التصادم مع أحد، إلا أنني لا أحتمل أن يستغفلني الآخرون. لذا فوجئ الجميع حين أعلنت صراحة لهم بأنني لن أدفع للبرميل، فالموجرون يدفع عنهم صاحب العمارة، كما هو مشار إليه في عقد الإيجار. أما مالكو الشقق فعليهم مشاركته بالدفع. هبت العجائز يتحدثن معاً معترضات، وبشكل خاص المالكات منهن، فسيما شكرني الموجرون الآخرون على هذا التنبيه ومنهم الفتاة الكويتية التي صارت صديقتي إثر ذلك. نقف قليلاً كلما تقابلنا على السلم. نتشارك معاً بالشكوى من الديكتاتوريات الحاكمة في بلدنا. وتبث لي معاناتها هنا لعدم حصولها على أوراق إقامة قانونية، وتنقلها بين عمل وآخر لفترات قصيرة بلا عقود، تتحمل في أثنائها استغلال المديرين لها. دعسوقها غير مرة إلى شرب الشاي في شقتي ودعتني هي إلى حفلة عيد ميلادها. كانت تجلب لي هدية السجائر الهافانية الغليظة كلما استقبلت أحد معارفها الهاربين من جزيرة السُّكَّر، وتبادل أشرطة الموسيقى، ونقصد بعضنا إذا نَقص الملح أو السُّكَّر أو الزيت أو رأس بصل.

توقفت هي عن الدفع لبرميل الزباله فأصبحت مثلي موضعاً للنظرات المستريبة من قبل العجائز اللاتي سمعنهم أكثر من مرة يلعن الحكومة الحالية لفتحها أبواب الوطن للأحباب ويمتدحن بحنين أيام فرانكو.. بل وسمعت لأكثر مرة إحداهن نغني في كل صباح النشيد الوطني القديم الهاتف بالعيش لإسبانيا، متممده ترك نافذتها مفتوحة كي يتسلل نشيدها إلى الجيران. بل وتتعمد أحياناً مدّ ذراعها خارجة على

طريقة التحية النازية. أما البواب فلم يكف عن معاملتي بمودة لأنني لم أكف عن إنحافه بالهدايا في أعياد الميلاد: قفازات، قميص، سترة، سجائر وصُحف. أذكر أنني قد أهديته أيضاً ذات جمعة بعد عودتي من المسجد عليّة حلوى عربية ففرح بها كثيراً.

بعد يومين من اجتماع برميل الزباله استوقفتني إحداهن على السدرج، وقالت بلهجة مُهدّدة: هذا لا يجوز.. يجب أن تدفع.. نحن في إسبانيا وليس في بلدك.. هنا يوجد قانون.

ماذا أقول لهذه؟!.. وهل ستفهم إذا قلت لها إن أول قانون في الدنيا قد شرعه حمورابي العراقي في مسلته؟.. استفتيتي نيرانها، كلماتها واختلاج حنكها وشعيرات الأنف، فقلت: حسناً.. إذا كان لديك حق علي في شيء فاشتكيه وخذي حقتك مني وفق هذا القانون الذي تتحدثين عنه. سكتت قليلاً ثم انفجرت بالبكاء المتوسل: أنا أرملة وحيدة وراتب الإعانة قليل.. كلبي قد مات منذ شهرين ولا أحد يعزيني فيه.. أنا حزينة عليه وأبكيه أكثر مما بكيت على زوجي.. لقد كان سوني (الكلب) طيباً يستقبلني كلما دخلت بفرح هازأ ذنبه ويرافقني في جولاتي اليومية إلى المتنزه.. لقد كان.. فقاطعتها حين أدركت بأنها على استعداد لقضاء اليوم بأكمله متحدثه عن خصال كلبها الميت: أوه.. أنا آسف يا سيدة.. أنا مستعجل وبانتظار مكلمة هاتفية. توقف جريان دمعها وقالت بلهجة أخرى تماماً: إذن هل ستشارك بالدفع؟ قلت: لا.. عن إذنك.. مع السلامة. ثم استدرت صاعداً دون أن ألتفت وأنا أسمعها تُدمدم خلفي بكلمات من المؤكد أنها شتائم لأنها أغلقت بابها بعد ذلك بقوة.. ماذا أقول لهذه العجوز التي تكبر أُمي ربما بعشرين سنة ومع ذلك تبدو أكثر صحة منها، ولا تكف عن طلي وجهها بالمكياج؟.. كيف أفهمها موت إخوتي وأبناء

عمومي وجدي وحببي عالية وإحصاء أبي والحروب وهي تحدثني
باكية عن كلب؟؟.

راحوا يتحاشونني بعد ذلك جميعاً باستثناء جارتي الصديقة
الكوبية، لكنني لم أكف عن مبادرتهم بالتحية حين ألتقي بهم على السلم
أو عند باب المدخل أو عند بائعة الخبز والخضراوات في المحل المقابل.
بعضهن لم يكن يرد التحية في البداية ولكن مع مرور الوقت تم الاكتفاء
بالتحيات وتركوني وشأني دون أن يدعوني لأي اجتماع بعدها. كانت
هذه العزلة تشعرني بالراحة أكثر لأنني أريدها. أدخل شقتي، علمي، بين
الكتب والطبخ والموسيقى وتحسين لغتي الإسبانية، وأقص أية صورة عن
العراق أجدتها في الصحف. أعلقها على الجدران، لذا ازدحمت بها، على
مدى عشرة أعوام، جدران غرفة النوم والصالة والممر والمطبخ. المؤسف
أن الصحف لا تنشر إلا صوراً مأساوية عن العراق، كالأبنية المتهدمة
والدبابات المحترقة وذباب الأسواق الشعبية وصوراً لصور الدكاتور في
الشوارع والساحات وواجهات العمارات. لذا أحاول أن أنتقي منها
الأقل قسوة.. أعلقها في كل مكان باستثناء البقعة التي أصلي فيها خلف
باب الصالة. كلها بالأسود والأبيض ما عدا بطاقتين ملونتين إحداها
بعثها لي صديق من إيران فيها منائر وقباب ذهبية كربلائية والأخرى
من تونس فيها نخيل. وغلاف ملون لصحيفة إسبانية تم تصميمه
بالكمبيوتر، خريطة العراق وطائرات حربية تشير مناقيرها إليه.

كنت مكثفياً بعالمي هذا، حيث أمارس هويتي الأولى، حنيني،
شوقي إلى احتضان أُمِّي وإخوتي، إلى زيارة قبر عالية، إلى السباحة في
نهر دجلة، إلى أصدقائي، إلى أبقارنا وحميرنا ودجاجاتنا والجيل. أتلف
إلى أخبار منهم، عنهم.. كيف هم الآن؟ ماذا حدث؟.. ماذا يحدث؟..
من مات منهم، من تزوج من؟.. وأنجبوا من؟.. ما هي الأسماء الجديدة

هناك؟.. هل مازال الله أو أصابعهم على القرآن هي التي تختار لكل اسمه وآيته الخاصة؟. أسمع الأغاني العربية فقط وأطبخ الوجبات العراقية.. لقد كابدتُ كثيراً كي أصل إلى هنا، وكابدت أكثر كي أجعل إقامتي قانونية وإيجاد مصدر معيشي. صار يعجبني العيش هنا وسط هذه الحرية وهذا السلام لذا فأنا منهم، من هنا، حين أكون خارج شقتي، أهتم بما يهتمون به: مباريات كرة القدم، مصارعات الثيران، أخبار الفنانين، سهرات نهايات الأسابيع.. لكنني من أهلي، من هناك، حين أعود إلى شقتي وحيداً.. وهكذا إلى أن ظهر أبي فجأة، مختلفاً عن الذي تركته هناك أو عن الذي عشت مع ذكرياتي عنه طوال هذه الأعوام. فأين أضعه وفق عالمي المنقسم إلى اثنين؟.. كانت صورته السابقة تدرج ضمن عالمي الداخلي.. الذاكرة والشقة وهذه الصور غير الملونة والدم. لكنني أراه الآن لا ينتمي إليه وفي الوقت نفسه لا أستطيع عدّه تماماً ضمن عالمي الخارجي.

أصدقاؤه هنا لا يشبهون أصدقائي، وعمله لا يشبه عملي، وسلوكه لا يشبه سلوكي.. بل إنه لا يشبه نفسه، ونساءه لا تشبه نسائي.. أو على الأقل لا يشبهن اللواتي عرفتهن، فأنا بلا نساء تقريباً أو على الإطلاق، والمرأة الوحيدة التي صاحبته منذ وجودي هنا هي بيلار التي تعرفت عليها قبل ست سنوات، حين ذهبت، ذات نهاية أسبوع، مع أصدقائي - الذين هم زملائي في العمل - إلى مرقص، قدمها لي أنطونيو المسؤول عن مراجعة عناوين الأكشاك والمكاتب وأسماء وكميات الصحف التي نوزعها. بيلار موظفة في البريد. ممتلئة وأقصر مني قليلاً، وجهها دائري يطفح بالحوية والرغبة، مقصوفة الشعر كي تؤكد أن طول رقبتها لا بأس به. بعد تبادل كلمات التعارف عند دكة البار، قالت: هذه أغنية برازيلية جميلة.. أترقص

معي؟. قلت: لا أعرف الرقص.. هل تفهمين ما تقوله هذه الأغنية؟. قالت: هذا غير مهم، فلا تظن أن كل هؤلاء الراقصين يعرفون كلمات الأغاني أو أنهم يعرفون الرقص.. المهم الإيقاع ثم هز نفسك كما تشاء فليست هناك قواعد معينة.. تعال. وسجتي من كفي إلى وسط حلبة الدخان، إلى دائرة الرقص، تحت كرة الأضواء الملونة الدائرة فوق رؤوس الدائرين على أنفسهم.. بالفعل شجعتني تلك المرة على عدم التردد في دخول حلبات الرقص، حيث أمضينا ساعات من الاهتزاز والتلامس والمرح والضحك واشتهاء الأجساد المتدفقة بانتفاضاتها حولنا ونسيان ما لا نراه.

تتعرق أجسادنا، نحتسي السوائل ونذهب إلى الحمامات كثيراً. لا ساعة في الجدران طبعاً، لكننا حين شعرنا بالتعب قلنا: كم الساعة الآن؟. فأجاب أحدهم: الرابعة إلا ربع. قالوا: نذهب إذاً. وفي ممر الخروج همس لي أنطونيو: خذ بيلار معك. قلت: إلى أين، متى، كيف، لماذا؟. قال: اهدأ.. هكذا.. كما أقول لك. قلت: ولكن أنا.. فقطاعني: هي التي سألتني ذلك.. لحظة، سأجعلها تطلبه منك بنفسها. وتراجع مقترباً منها فيما خرجت أنا منتظراً أمام الباب، شعرت بعذوبة الهواء في الخارج، خلوه من الدخان والروائح، برودته وهو يلامس جسدي المتعرق.

كان ماريو بجوارني منشغلاً بتقبيل كارمن، مسنداً إياها على عمود النور، وكفاه على مؤخرتها كعادته حتى لو كانت جالسة على كرسيها كسكرتيرة في شركتنا. كلما قبلها مد كفيه إلى هناك. خرج الجميع، يمسخون عرق جباههم، يعدلون من ملابسهم، نافضين ياقات قمصانهم وأسفل آباطها بقصد التهوية. أنطونيو وإيبا وحسوس وإيريكه وماريسا وبيلار التي اقتربت مني قائلة: كيف.. هل أعجبتك السهرة؟.

قلت: نعم. قالت: وأنا كذلك.. لم يبق مترو الآن، أنا أسكن خارج مدريد في مستوليس وأنت؟. قلت: أنا هنا قريب في شارع فومينتو، قرب ساحة إسبانيا. قالت: أوه.. أنت محظوظ.. تعيش وحدك؟. قلت: نعم. قالت: هل تسمح لي بقضاء الليلة عندك؟. قلت: نعم. ودعنا الباقين وقال أنطونيو: إلى اللقاء في الشركة بعد ساعتين. ثم أضاف مع ابتسامة مقصودة الدلالة: حاول أن تنام ولو ساعة واحدة.

ما إن انعطفنا في الشارع التالي حتى لفت بيلار ذراعها على ذراعي ملتصقة بي في مشيتها. كانت الشوارع خالية إلا من أشباهنا الخارجين من المراقص أو سكارى ومتسكعين يشخرون في مداخل أبواب البنوك، وتمرق سيارة ما بين حين وآخر. قالت بيلار: من حسن الحظ أن عملي في المساء ولذا سأستطيع النوم.. وأنت؟. قلت: أنا عملي يبدأ في السادسة ولذا اعتدت أن أنام القيلولة عند عودتي، من الثانية عشرة حتى الثالثة وأحياناً حتى السادسة مساءً. كنت أشعر بشديها على ذراعي، لدين، وأنفاسها عند كتفي حين تحدثت. تقول: لدينا مراقص في منطقتي بالطبع، لكنني أحب مراقص المركز هنا منذ أن كنت في الرابعة عشرة من عمري، تعرفت فيها على أصدقاء كثيرين.. كم عمرك؟. قلت: ثلاثون.. وأنت؟. قالت: ستة وعشرون.

وصلنا باب العمارة التي أسكن فيها فوجدنا قطة نائمة عنده. نفضت وابتعدت حين وقفتُ فاردأ المفاتيح. قالت بيلار: أوه.. يا حلوة.. أنا لذي قطة أيضاً اسمها كلارا أهدتني إياها صديقتي لاورا في عيد ميلادي قبل سنتين. فتحت أنا الباب وأضأت مصابيح السلم، بينما تواصل هي حديثها عن القطة دون انتظار إجابة، ربما لتملأ الصمت أو لتقرب مسافات التعارف أكثر. أحبها جداً وهي تنام في حضني دائماً، هذا إذا لم يكن معي شخص آخر في السرير طبعاً.. وتضحك. تخيل

إنها تغار أيضاً. نصعد الدرجات بتعب لأن السلم قدم كالعمارة، مصنوع من الخشب بدرجات عالية وغير مريحة بحكم ضيق المكان. صدقني إنها تغار علي من الآخرين أيضاً. للأسف أنا ولاورا قد تخاصمنا منذ تسعة أشهر، تغار على خطيبها مني.. كم بقي لنا؟. قلت: طابقان، أسكن في الطابق الرابع.. الأخير. واصلت لاهثة: أوف.. لا بأس، نحن شباب، يقال إن صعود السلم يقوي عضلة القلب. أمسكت بذراعي مستعينة ثم انتقلت قفراً من السير خلفي إلى السير أمامي بدرجتين، حيث وازت مؤخرتها وجهي؛ كروية ممتلئة يُبرز تفاصيلها سروال أسود محكم الضيق، يغور منتصفه داخلاً في العمق بين الردين. وتُرى ناتئة بوضوح حواف لباسها الداخلي، إحدى الجهات داخلة أكثر من الأخرى. لون أبيض، فقد رأيت أعلاه خارجاً من أعلى البنطلون حين تنحني صاعدة ويرتفع قميصها قليلاً. تلهث لكنها لا تكف عن الكلام: أنا أسكن في الطابق الثاني ولدينا مصعد لأن العمارة جديدة، إن شقوتي ملكي فقد اشتريتها بكفالة البنك استناداً إلى راتبتي، أنا أعمل في البريد منذ خمس سنوات. توقفت في آخر السلم: أوف.. وصلنا.. أيهما؟. قلت: الباب الأيمن.

انجَهِت نحوه ثم وقفت هناك منزلة حقيبتها السوداء عن كتفها وتاركة لي فسحة لأفتحها، فقلت وأنا أدخل المفتاح: إنها شقة صغيرة متواضعة.. ولكنها تكفي، أنا مرتاح فيها.. تفضلي. فاندفعت في المر بعد أن أضأت لها النور متوجهة إلى الصالة، تطلعت إلى الجدران المغطاة بمئات الصور التي اقتطعتها من الصحف وقالت: أوه.. إنها متحف.. إنها حيميّة.. هذه الصور من بلدك؟.. هل قلت لي أنك من إيران!. قلت: لا، أنا من العراق. قالت: زوج خالتي مصري، اسمه منصور، إنه شخص لطيف. أَلقت بحقيبتها على الكنب، خلعت قميصها الخارجي

ذي اللون البنفسجي كاشفة عن لحمها العلوي أبيض حد تشابهه بخيطي قميصها الداخلي المعلقان على كتفيها وبان صدرها عامراً، يفوق بحجمه صدر عالية بالضعف. أعلى النهدين عارٍ وهما يرفعان القماش الحريري الخفيف بلا مشد للأثناء لأن الحلمتين بارزتان بجلاء على طرفي المنخفض الوسطي بين الكرتين حيث يتدلى صليب صغير من الذهب. وراحت تستكشف البيت مظلة برأسها من الأبواب: غرفة واحدة!.. إنها مليئة بالصور أيضاً!.. وهذا هو الحمام، فأين المطبخ؟.. آه.. إنه هناك في الممر.. وتوجهت إليه، فيما جلستُ أنا على الكرسي أخلع حدائي بعد أن شغلتُ التلفزيون خافضاً صوته، وسمعت صوتها من المطبخ يقول: أشعر ببعض الجوع قليلاً.. وأنت؟.. هل تريد أن أعد قليلاً من السباغيتي بالجبن والحليب، لقد علمني ذلك صديق إيطالي، إنها أكلة لذيدة. قلت: لا.. بالنسبة لي سأكتفي بتمرتين وعلبة لبن صغيرة. وتوجهتُ إليها في المطبخ، أنزلتُ لها كيس السباغيتي، سحبتُ قدرًا صغيراً للطبخ وأوقدت لها الطباخ. وأخذتُ هي كأساً تنقل به الماء من الحنفية إلى القدر، ثم تعود مكانها لتكسر أعواد السباغيتي.

لا تتوقف عن الحديث وتكرار المرور من خلفي حاكة ثديها على ظهري بحجة ضيق المكان أو وازعة كفها على ظهري برفق. ثم فتحت باب الثلاجة وانحنت مظلة إلى داخلها فبان نصف ظهرها أبيض تحت القميص الخفيف الأبيض، وبنظروها الأسود انسحب إلى الأسفل أكثر مجروراً بفعل إلتيتها فبان أكثر شبكة الدانتيل الشفافة للباسها الداخلي وزغب أول خط مفترق الردين البائن أعلاهما. تكويرتان على الخلف ممتدتان حتى أسفل الخصرين على الجانبين. قالت: هذا الجبن ينفع نعم.. وهذه علبة الحليب. مدت ذراعها بهما وازعة إياهما على حافة الطباخ دون أن تُخرج رأسها من الثلاجة وهي تقول: لا أرى لديك نبيذاً..

شربنا كثيراً نعم، ولكنني أشتهي كأساً أخيراً. قلت لها: أنا لا أشرب الكحول، ولكن توجد بيرة بلا كحول إذا شئت. قالت: أين؟ دون أن تغير وقتها فأنحيت خلفها، مسنداً كفي على البقعة العارية من ظهرها ووجهي قرب وجهها. سحبتُ لها علبة من خلف كيس الخبز العربي، فأدارت وجهها وقلبتني على خدي: شكراً.. لماذا لا تشرب الكحول.. منصور يشربه.. أنت متدين؟. قلت: لا.. نعم.. إلى حد ما ولكنني غير متشدد. قالت: أنا لا أؤمن بوجود الله.. ولكن أحترم آراء الآخرين.

لم تكن لي رغبة بمواصلة الحديث عن هذا الموضوع الذي أعرف بدايته ونهايته وإلا لسألته عن الصليب الذي تحمله. فأنا أتوقع الإجابة سلفاً كالقول: إنه لا يعني شيئاً، إنه رمز تقليدي عام، أو إنه هدية من أمي أو صديقتي أو لأنه جميل وبسيط وما إلى ذلك من تبريرات لا تشير إلى حقيقة المخفي من طبيعة تدينهم. لا رغبة لي بذلك ستسألني مثل الجميع عن السطحيات التي يعرفونها عن الإسلام فقط، الزواج من أربع نساء، والحجاب، واللحي.. وما إلى ذلك من هذه الموضوعات التي تعسبتُ من النقاش فيها وتوضيحها، وخاصة عندما يعود الذي أفتعته ليسألك الأسئلة ذاتها بعد يومين. قلت: أنا أؤمن بوجود الله.. وأحترم آراء الآخرين. ربما أدركت عدم رغبتني بالحديث عن ذلك لذا غيرت الموضوع: إنك تتحدث الإسبانية جيداً.. كم سنة لك هنا في إسبانيا؟. قلت: خمس سنوات تقريباً. وهي مازالت تتحرك محتكة بسي: وليس لك خطية أو صديقة؟. قلت: صديقات نعم، زميلاتي في العمل اللاتي رأيتهن معنا في المرقص، أما خطية فلا. سألت بجد مطلي بالمزاح: لا بد أنك متزوج في بلدك. فأجبتها ببرة شبيهة وتمكمية: نعم لدي أربع زوجات وأربعون ولداً.. فضحكت. أغلقتِ القدر وقالت: تعال نجلس

في الصلاة قليلاً حتى ينشف الماء ثم نضيف مثلثات الجبن وبعض الحليب.. سيكون الطعم لذيذاً.

جلست أنا على الكنبه فجاءت وجلست ملتصقة بي واضعة علبه بيرثما على الطاولة أمامنا بعد أن ارتشفت منها مرتين وقالت حين رأيتني أحقدق بشاشة التلفاز: لا شيء مهم الآن في التلفاز. وبالفعل كانت مجرد برامج آخر الليل الدعائية عن أنواع السيارات وأجهزة الرياضة الحديثه. فأطفأته ولقت ذراعها اليسرى على رقبتي ومدت اليمنى إلى قميصي تفتح أزراره قائلة: لماذا لا تغير ملابسك، أنت في بيتك. وضحكت وهي تشدني نحوها، نحو شفيتها، فرحنا في قبة طويلة تبادلسنا فيها الألسن والشفاه وهواء التنفس المتسارع. وخلال ذلك كانت كفها تعبث بشعر صدري وتنزل، بينما كنت أفكر بصدرها الممتلئ منذ رأيتته يهتز بالمرقص. أشتهي تجربة ملامسة صدر كبير كهذا، فبادرت دون أن أتوقف عن مص شفيتها بمد كفي من تحت قميصها الداخلي الخفيف.. أوه.. ما أعذب ذلك.. لدنان تغوص فيهما أصابعي وتدور حولهما كفي باتساع. حلمتان شعرتُ بهما ينتصبان. رأس إصبعي يمس رأسيهما، ثم أصابعي تدور على كل الجهات ويرعشني الدفء بين انطباقه النهدين عليهما.

سرت الرعشة في بدني، توثرَ وسطِي.. أصابعها تنزل باتجاهه وهي تزداد طراوة والتصاقاً بي، تدوب مغمضة عينيها.. ولا أدري كم بقيتها هكذا لكننا حين توقفنا ونظرت إلى وجهها وجدتها مبتسمة متوردة وأكثر جمالاً بعينين لامعتين واشتهاء ثري. قلت: وأنت في بيتك أيضاً، غيري ملابسك إذا شئت. توجهنا إلى غرفة النوم. فتحتُ خزان الملابس وأخرجتُ لها إحدى بحامتي، فوجدتها، حين التفتُ، قد خلعت بنظلوها ورأيت لباسها الداخلي الأبيض غائصاً في امتلاء

مؤخرتها والفخذين. بيضاء، قالت: البجامة فقط، وسأبقى بقميصي هذا. واستبدلتُ أنا أيضاً ملابسني وظهري إليها كي لا ترى الانتصاب المتوتر أمامي.

شعرنا بالراحة والتحرر حيث راحت هي تتحرك بشكل أكثر ثقة وعفوية بين الصالة والحمام والمطبخ حيث عادت إلي بعلة لبن مفتوحة وفيها ملعقة صغيرة. أعطتني إياها وجلست في حُجري، ملأته بمؤخرتها التي احتضنتها كفي ودارت حولها من كل الجهات. استندت علي صدري تقبلني بين لحظة وأخرى. وأنا أعاود ملامسة ثديها من فوق القميص.. ومن تحته.

بعد تفكير متقطع، متناقض، متقلب.. حسمتُ الأمر في نفسي على عدم مضاجعة بيلار، سأتحاشى الوقوع في الخطيئة هذه الليلة قدر المُستطاع. لم أضاجع أحداً من قبلها، ولن أخبرها بعذريتي حتى الآن لأننا لن تصدق أو تضحك أو تخاف.. أو لا أدري، فأنا الخائف أيضاً من الله وجدي وعالية ومن احتمال فشلي وارتباكي وافتقاري إلى التجربة. سأكتفي بما قطفته منها من قبلات وملامستي لتهدين كبيرين كنت أشتهيها كلما مرت امرأة بهما أمامي في شوارع الحياة أو كشفت عنهما على شاشات السينما وسواحل البحار الصيفية. فلم أعرف في حياتي مثل تهدي عالية الرائعين، لا كبيران ولا صغيران، طريان متينان ومنتصبان أبداً حتى وهي ميتة.. كأنهما خلقتا استحابة لأمنية: هكذا أريدهما. كانت تطليهما لي بالتمر وأمصهما تحت شجيرات الغرَب والصفصاف، على الرمل، وسط دغل شاطئ قريتنا القشامر.

انتهت بيلار من تناول طعامها بعد أن ألقمتني منه مرتين لتجريبه. كان لذيذاً بالفعل. وقلت في نفسي سأجرب إعداده لاحقاً. وهذا ما فعلته حقاً بل وتفننت فيه مغيراً من أنواع الجبن والحليب. غسلت الأواني في المطبخ، ثم عادت ودخلت الحمام دافعة بابه دون أن تغلقه. سمعت خريير بولها، تمضمضها، تمحطها واغتسالها ثم خرجت وأشارت برأسها إلى غرفة النوم: هيا. قلت: لا.. سأحاول النوم قليلاً هنا على الكنبة ولو نصف ساعة فأنا متعب ولدينا عمل كثير، عادة، في أيام

الاثنين. قالت وقد تبدلت ملامحها قليلاً: ولماذا على الكنبه؟.. السرير يتسع لكلينا. قلت: لا.. فأنا أشخر بقوة كلما كنت مُتعباً، كما أنني لا أريد إزعاجك بمنبه الساعة. قالت: حسناً.. كما تريد. اقتربت مني وقبلتني من فمي قائلة؛ تصبح على خير، ثم غابت في غرفة النوم. رددتُ أنا عليها الباب، أطفأتُ نور الصالة واستلقيت على الكنبه.

في الحقيقة لم أكن شديد التعب لأنني اعتدت على النوم نهاراً، وليس لدي نعاس حيث قلبي يزداد خفقاناً لوجود امرأة في بيتي.. وخاصة بعد كل هذه القُبَل والملاسمات. كنت أرغب بالانفراد بنفسي قليلاً وإعادة تأمل كل ذلك.. يحدث معي هذا الأمر دائماً؛ بعد أي حادث أو حديث مؤثر أختلي بنفسي لبعض الوقت مستعيداً له، متأملاً، مستمتعاً ومستشرفاً آفاقه. قبضتي تعصر المتوتر تحت بجامتي ورائحة بيلار تملأ المكان. لكن ما حدث أعادني إلى عالية، أنا العائد إليها دائماً، قصة جبي الوحيدة، الأولى منذ كنا صبية في قرية الصُبح. وذكرياتها غذاء رغباتي الأشهى. هي ابنة عمي وبيتهم جارنا لا يفصلنا عنهم سوى حائط واطى من الطين كنا نعبه بالجلوس عليه. تنور خبزهم جار تنور خبزنا لذا كنا نجتمع حول أمهاتنا وهن يخبزن في الفجر أو عند الغروب. هن يتحدثن عن الجارات والأبقار والدجاج والمزارع والأطفال ونحن نلعب حولهن ونختار كسر الخبز المحمص هناك. كانت عالية أحب اللاعبين إلى فأنحاز لها دائماً في كل النزاعات وأهدي إليها أفضل كائناتي التي أصنعها من الطين ومنها حصان لونه بالأبيض، باستثناء الذيل أسود مثل حصانهم، لأنها تحب الخيل. ووالدها هو الوحيد الذي يملك حصاناً في القرية، أما نحن البقية فليس لدينا سوى الحمير. يسميه (الأسد) على الرغم من أنه حصان.

حين كبرت عالية صارت تركب (أسد) أبيها وتنتقل به إلى شاطئ النهر لتسقيه أو تأخذه إلى الحقل لجلب الخرج المليء بالبطيخ والبادنجان من أمها.. وكلما رأيتها تمر قربي ثم تبتعد أبقى في مكاني مستعيداً مشهدها على الحصان الأبيض وشعرها الأسود الطويل الشبيه بذيلسه يراقص الهواء خلف رأسها مثل جناح طائر سعيد. كانت أختي إستيرق هي مرسال الحب بيننا، لأننا حين كبرنا صار من الصعوبة اللعب مع بعضنا أو الانفراد في اللقاء، وقرية (الصبح) مكشوفة محتشدة بالعيون، الكل يعرف الكل ولا يُخفى شيء على أحد.

حين قلت لإستيرق أول مرة بأني أحب عالية، فرحت كثيراً وانطلقت راكضة صوب بيت عمي. هي النحيلة المريضة دائماً، رأيتها، من النافذة، تعبر الجدار الطيني بقفزة واحدة ثم تغيب. أما أنا فبقيت في حجرتي مرتجفاً، أعطي وجهي بالمخدة وأعصره.. لا أدري ماذا أفعل، وقلبي يدق بشكل لم أعهده من قبل إلا في حالات الخوف من جسدي. وعلى الرغم من أن إستيرق قد عادت بعد نصف ساعة لاهثة وأغلقت الباب خلفها، إلا أنني كنت أشعر بأنها قد تأخرت دهرأ. لم أستطع قراءة شيء على وجهها ولكنني كنت أشعر بأنها تحمل الإجابة التي ستجعلني سعيداً أو حزيناً في لاحق أيامي.

دارت في الغرفة متخابطة عامدة وهي تشبك أصابعها وتطقطقها تباعاً. رأسي يتابع رواحها ومجيئها مثل بندول ساعة جدارية. أمسكتها من ذراعها حين مرت جوارتي وأنا مازلت أجلس على حافة السرير لا أقوى على الوقوف.. لأنني أرتجف، ولم أستطع الكلام فزفرتُ سائلاً: هاه؟؟.. نظرتُ إلي بمعان كنت أراها كثيرة، ثم أدارت وجهها صوب الجرة الصغيرة التي صنعتها بنفسها من الطين ولونتها بزخارف من أزهار وفراشات ودوائر في دوائر كالعيون، وكنت أعتبرها أفضل أعمالها

الفنية وأحبها إلي، لذا وضعتها قرب رأس سريري فوق صندوق الكتب وفيها أقلامي. قلت: ماذا؟.

ابتسمت إسترق وأشارت بسبابتها إلى الجرة دون أن تنطق، وفهمت أنها تريد هذه الجرة مقابل كلامها. حاولت التغابي أو تحييدها عن ذلك فسألت: ماذا.. هل وجدتيها؟. ظل إصبعها يشير إلى الجرة بإصرار. فمددت ذراعي دون أن أنهض، قلبتها وأخرجت أقلامي منها، وضعتها على سطح صندوقي ودفعت بالجرة إلى إسترق، فابتهجت محتضنة لها، وقلت: هاه.. ماذا؟.. تكلمي؟ يا إسترق يا عيني.. الله يحفظك.. إنك تذبجيني. لكنها واصلت صمتها المتخاثب وابتساماتها الدالة، ثم مدت كفها لي ولم أفهم. دفعتها أكثر إلى فمي، فعرفت أنها تريد مني تقيلها، فقبلتها، لكنها هزت رأسها بالنفي وأشارت إلى الأرض. فتذكرت أنها تحضر معنا حكايات جدي الليلية عن الفرسان القدامى العائدين من المعارك بالانتصار وهم يقعون بركبهم على الأرض ويقبلون أصابع حبيباتهم. ففعلت، ثم تطلعت إلى وجهها من الأسفل فكانت مرتفعة فعلاً. وهطلت على وجهي محتضنة رأسي دون أن تترك الجرة من يدها. أمطرتني بالتقيل والفرح قائلة: إنها تحبك أيضاً يا سليم.. إنها تحبك.

وهكذا كانت أولى بداياتي مع كتابة الرسائل والشعر. أطرز حافات الرسائل برسوم الفراشات والقلوب المخترقة بالسهم وعليها الحرفان الأولان من اسمينا. وكنت أتسلل إلى غرفة أمي، في غيابها، لأرشد على رسائلي من زجاجات عطرها التي يجلبها لها أبي هدايا من أصدقائه الألمان. يقول جدي في قصصه عن الفرسان أنهم كانوا جميعاً عشاق وشعراء وأكثر من يعجبه منهم عنتره ابن شداد ويتمنى رؤيته لأن النبي قد تمنى ذلك أيضاً. عنتره كان مثلي يجب ابنة عمه أيضاً،

وهو يكتب لها الشعر، لذا كتبت قصائدي الأولى لعالية. أصف نفسي فيها فارساً شجاعاً لا يهاب الموت، أقطع من رؤوس فرسان العدو ألفاً بسضرة واحدة من سيفي، وأصارع الأسود المتوحشة فأهرس رؤوسها بقبضتي كمن يهرس بيضاً. أقطف لها نجوم السماء وأصنع منها قلادة يتوسطها القمر، أعلقها في رقبتها، وأجبر الناس على الاعتراف بأنها أجمل نساء الكون. فيما أصف عينيها، على الرغم من أنهما صغيرتين مثل فتحات إدخال الأزرار في القمصان، لذا كانت أمها تناديها مدللة أو غاضبة: يا صينية. لكنني شيهتهما ببحيرتين واسعتين من المرجان، عينان فيهما كبرياء أسد ورقة غزالة، وشعرها حرير يغار منه الحرير، وبأنها هي التي علمت أغصان الأشجار كيف تتمايل عند هبوب الريح بدلال مثل مشيتها، وبأن عالية هي ملكة الدنيا لا يرى تاجها غيري وسأجعلهم يرونه بقوة سيفي..

كانت إستيرق تقرأ رسائلنا عند نقلها وتقرأ قصائدي بدهشة متمنية لو أن صراط يستطيع كتابة الشعر مثلي. أما عالية فلم تشر إلى قصائدي في رسائلها أبداً.. لم أستطع الانفراد بها طوال أعوامنا في قرية الصبح على الرغم من أنني كنت أترصدها ليل نهار من نافذتي وأتعمد خلق المصادفات لأحييها أو أختبي فوق الجرف لأراها حين تأتي إلى شاطئ النهر على حصانهم لترويه وشعرها طائر خلفها مثل جناح طائر سعيد. وأرى التماع ساقها حين تخوض في الماء، تكويرة رديها وهي تسنحني لتعرف وتشرب أو تغسل شعرها. وكنت أكثر من يجزن حين يشتد المرض على إستيرق ويطحرها في الفراش، حيث تنقطع الرسائل من عالية وإليها، فأجلس قرب رأس إستيرق آخذاً كفيها النحيفة الساخنة بين كفي، أقبل أصابعها وأبكي.. عادة تعلمتها من جدي الذي ينكسر قلبه وظهره كلما رأى أحدنا طريح الفراش، يجلس قرب

رأسه، يتلمس كفيه وجبهته بخنان فائض ويتلو آيات من القرآن وأدعية الشفاء متوسلاً إلى الله كأنه يراه. لذا كانت أيام مرضنا هي أكثر أيامنا قرباً إلى جدنا الذي نراه في أثناء صحتنا شديد المهابة والقسوة على الرغم من أننا لم نره يضرب أحداً.. لكنه أشد علينا حناناً من أمهاتنا عندما نمرض.. إلى الحد الذي كان يُشعرنى أحياناً بتمني المرض كي أحظى بلمسات أصابعه الخنونة.

إستيرق أحب أخوتي إلي وأقربهم إلى روحي، وهي تشاركني لعبي، ترتب لي غرفتي، تقلم لي أظافري وأقلم لها أظافرها وعند انشغال أمي عنها أساعدها بتمشيط شعرها. تحفظ لي قطع الحلوى في غيابي وأحفظ لها قطع الحلوى في غيابها، نتشارك في أسرارنا دون بقية إخوتنا. أنقل لها رسائل حبها إلى صراط وتنقل رسائل حبي إلى عالية. الكل في عائلتنا يعرف انجيازنا لبعضنا وحميمية محبتنا، لذا اختارني جدي وأبي لأكون معهما، دون سواي، حين قررا أخذ إستيرق إلى الشيخ الكردي لمعالجتها. ولذا سقط قلبي معها حين سقطت مني بعد سماعنا لصوت طلقة، أول ترجلنا في باحة ذلك الشيخ، وصيحة جدي: الله أكبر.

جثوثُ قرب رأسها على ركبتي فرعاً، أتفحصها ولا أرى دماً، فأهز كتفيها وأناديها عليها تفتح عينيها: إستيرق.. إستيرق. حبيبي. فجاء الشيخ الكردي صوبنا راكضاً من جهة الطلقة، من جهة البيت، حاملاً بندقية صيد قديمة مازالت فوهتها تدخن وهو يصيح بي: اتركها.. اتركها يا ولد. وردد جدي بالصيحة ذاتها: اتركها يا سليم. فرفعتُ كفي عنها دون أن ألخص أو أبتعد، ناظراً إليهما وهما يتعانقان مثل صبيان فاز فريقهما بالمباريات. كانا بالسن نفسها، نحيفين، متساويين في القامة، لحيتان بيضاوان، جدي يرتدي بدلته المفضلة

للمناسبات نسميها (زبون) وعقال، والكردي ببدلته عريضة السروال وعلى وسطه لف حزام من القماش شبيه بقماش عمامته، كانا في أوج أنافتهما وعناقهما. يرتان على أكتاف بعضهما ويرددان العبارة ذاتها: أوه.. أخي وحييي في الله الملا مطلق. أوه.. أخي وحييي في الله كاكه حمه. فيصحح الكردي لجدي: لم أعد حمه فقد غيرت اسمي إلى عبد الشافي منذ أن من الله علي بكراماته. صافحه أبي وقال جدي: هذا ابني الكبير نوح. ومسح على رأسي فقال جدي: هذا حفيدي سليم وهذه أخته إستيرق.

تمتم الشيخ: ما شاء الله.. ما شاء الله. ثم التفت إلى الخلف ونادى على فتاة تقف في الباب: هاتي الماء. فجاءت راكضة بثياب ذات ألوان كثيرة كالفراشات. وعلى آخر رأسها شال لامع. أخذ منها طاسة الماء وسألها: الملح. فمدت قبضتها الأخرى إلى كفه المفتوحة وأرختها ليتسرب منها الملح. راح الشيخ يذروه على الماء في الطاسة وهو يتمتم بكلمات لم نفهمها، يغمض عينيه ويقرأ من قلبه، ثم بصق في الماء وواصل قراءته الغامضة. غرس إصبعه السبابة في الماء، بمثابة ملعقة، يحرکه كمن يحرك السكر في قده شايه. غطس كفه كاملة في الماء ثم راح يدور حول جسد إستيرق المسحى نافضاً فوقه بلل أصابعه ويقرأ، يدور، يرشها بالرداذ ويقرأ، حتى لم يبق في قعر الطاسة إلا القليل فوقف عند رأسها قبالي وانحنى.. سكب كفه على وجهها وصاح بصوت أجفلي: الله حي.

رأيت إستيرق تفتح عينها وتنظر إليه. فابتسم لها قائلاً: أهلاً يا حلوة. ثم نمض قائلاً: هاتوها إلى الداخل. وسار نحو جدي، ذراعه على كتفيه قائداً إياه صوب مدخل البيت. وتعاوننا أنا وأبي والفتاة الفراشة على إنحاض إستيرق. سارت خطواتها الأولى متكئة علي ثم

شعرتُ بأنها تسير بمفردها حتى دخلنا من بوابة جميلة امتزج فيها الخشب والنحاس المعقوف والزجاج الملون.

الصالة واسعة تشبه مسجد، البسط والسجادات الوثيرة تغطي أرضيته، ووزعت عليها الوسائد في كل الاتجاهات. ثمة عمودان بلون جذوع الأشجار في الوسط، موقد فحم غائر في الجدار تحت مربع مدخنة يأتي من خلالها صوت هديل الحمام الحاط على أعلاها في عش اللقالق المهاجرة. أبواب كثيرة في الجدران المتباعدة. جلس جدي والشيخ متجاورين دون أن يفكا اشتباك كفيهما. وفي صدر المجلس فراش مُعد بوسائد عالية وشرشف أبيض مطرّز الخواف بأزهار النوار. مددنا عليه إستيرق، غطتها الفتاة وجلست أنا عند أقدامها، فيما جلس والدي على بعد متر مني. قال الشيخ للفتاة شيئاً بالكردية لم نفهمه. لكن جدي، الذي فاجأني بأنه يعرف اللغة الكردية، اعترض: لا.. لا داعي لإعداد الطعام يا شيخ، طريقنا بعيد ونريد العودة قبل غروب الشمس. توقفت الفتاة مستفهمة. فكرر عليها الشيخ بالكردية وانصرفت، فيما قال جدي: حسناً كما تشاء. وعلق الشيخ: لدينا ديك رومي ممتاز يليق لحمه بالأعزاء.

فكنا اشتباك كفيهما وربت الشيخ على فخذ جدي مغبراً وجهة الكلام: لقد نحفت كثيراً، ولولا تذكري الدائم لك وأيامنا في القتال مع ابن عمنا رشيد عالي لما عرفتك. قال جدي: إنه تقدم السن ومرض السكر. علق الشيخ مرحاً: لا بأس، هذا حق.. كنت تمص السكر طوال حياتك وأن له أن يمصك. فضحكنا جميعاً فيما مد الشيخ كفه إلى جبهة إستيرق التي كانت تنظر إلينا بصمت. عيناها جميلتان صافيتان، على الرغم من صُفرة خفيفة تشوب بياضهما، لامعتان أدهشني سحرهما كأني لم أرهما من قبل. وقال الشيخ: كانت مسكونة

مهريت، لعنه الله، يتغذى على دمها فقتله. فاجأني وأبى قوله بينما قال حدي بيروود العارف: ألا لعنة الله على إبليس وأتباعه.

فستحت الفتاة الفراشة باباً، كانت تصطخب خلفه الأصوات، داخلية بصينية مليئة بأقداح الشاي التي يتعالى بخارها، وفر معها من فتحة الباب جمع أطفال يترაკضون بضحيهم منطلقين صوب فناء الدار لاعبين. دارت علينا بالصينية فتناولنا منها أقداحنا، وابتسمت لي حين انحنت أمامي فشمت عطرها المصنوع من عروق النباتات. حين انسحبت أكمامها كشفتنا عن ذراعين يضاوين كشرائح الجبن فيهما أساور رقيقة من الذهب وساعة إلكترونية رخيصة. وحين انحنت أمام الشيخين قال الآخر لجدي: هذه كوالاله ابني الصغرى.. آخر العنقود. وضحك فيما علق حدي: الله يحفظها. وسألها والدها: أين وضعت القلم والدفتر يا حلوة؟. فأشارت برأسها إلى الرف خلفه ناطقة كلمة بالكردية. فالتفت وتناول دفترًا قديماً ورقه أصفر شبيه بأوراق بضعة كتب كانت هناك عرفت منها القرآن فقط. اقتلع ورقة من الدفتر، أسندها عليه، على فحذه وهمم بالكتابة ثم سأل: قلت ما اسم ابنتك؟. فأجبت أنا أسرع من حدي: إسترق. كتب وسأل ثانية: وما اسم أمها؟. ترددت لأننا لم نعتد نطق أسماء أمهاتنا، وبما أنني أنادىها أمي دائماً لذا لا يحضري اسمها بسرعة حضور اسمي مثلاً أو حضور أسماء إخوتي. كذا بالنسبة لنا اسم حدي لأننا نناديه "أبى" صغاراً وحدي كباراً، والآخرون ينادونه: يا ملا. أجابه أبى: مريم. فسألت أبى هامساً: لماذا اسم أمها وليس اسم أبيها أنت؟. سمعني الشيخ عبدالشافي فأجابني من هناك: كلنا يوم الحشر ننادى بأسماء أمهاتنا، لأن الأم واحدة، وأكيدة، أما الأب فقد يتعدد وغير أكيد. ثم استغرق الشيخ بالكتابة، مستعيناً بين الحين والآخر بكتب قديمة يسحبها من الرف الصغير خلفه.

نظرتُ إلى إستيرق فوجدتها تنظر إلي وإلى أبي، فابتسمتُ لها ثم
مددت لها كفي حين رأيت أصابع كفها في آخر ذراعها الممددة خارج
الشرف توميء لي. كانت كفها دافئة تُسْرَبُ الخنان وهي تشبك أصابعها
بين أصابعي. أغمضتُ عينيها قليلاً ثم فتحتها على أبي الذي اقترب
من وجهها قائلاً بصوت خفيض: كيف حالك حبيبي؟. فهزت رأسها
بإيجاب. انحنى على جبهتها طابعاً قبله خفيفة ثم ابتعد بعينين دامعتين. كان
جدي ينظر إلى ما يكتبه صاحبه بفضول وشفاهه تتحرك قارئة.

حين انتهى الشيخ من الكتابة راح يطوي الورقة بشكل خاص،
يشيها ويشيها على ثنياتها، حتى جمعها كلها على شكل مثلث صغير
أغلقها بدس زاويتها بين فتحات الثنايا. أعاد الدفتر إلى الرف وسحب
من هناك بكرة خيط سحب منها نصف متر تقريباً. أدخل طرف الخيط
في أحد رؤوس المثلث ثم ربط الطرفين فصار قلادة، مدها إلى إستيرق
قائلاً: تعلقينها دائماً في رقبك ليلاً نهاراً ولا تخلعيها إلا عند
الاستحمام. وبينما كنت أعين إستيرق على تعليق قلادتها الورقية،
سمعت جدي يقول: لدينا بقرة مريضة، فاكتب لها رقبة أيضاً يا شيخ.
قال الشيخ وهو يعاود التفاته لأخذ الدفتر من وراءه: على عيني
ورأسي.. تكرم.. ماذا لها؟. وراح جدي يفصل له أعراض مرض بقرتنا
الحمرء. وبعد انتهائه من قلادة البقرة - التي سلمها لجدي قائلاً: ربنا
يجعل فيها الشفاء - وانتهائنا من احتساء أقذاح شايها، دنا الشيخ من
إستيرق، فتح جفنيها بأصابعه محققاً في عينيها وقال: بقيت خطوتان
بسيطتان وينتهي كل شيء.. ستصبحين بعدها عروساً تمام التمام.
وصاح باتجاه الباب البعيد: كواله.

فأقبلت الفتاة الفراشة. حدثها بالكردية فانحنت على أختي وعرفنا
أنه يريد نقلها إلى منتصف مربع الجلسة، فنهضنا أنا وأبي لنمدها

على السجادة في المنتصف. دار الشيخ حولها، وكولاله تسوي من فستان إسترق مُحسنة تغطيتها، ثم أمسكت بأقدامها حين راح الشيخ بمد ذراعيها على الأرض بموازاة رأسها، ثم أفرد أصابع يديها السبائتين وألصقهما ببعضهما ونادانا: تعالوا انظروا إنهما غير متساويين.. هذا طبيعي فالإنسان مثل السيارة يحتاج إلى إعادة موازنته بين الحين والآخر. كان الشيخ بالسبع الحيوية، يتحرك برشاقة وخفة. جلس عند رأسها، مد ساقيه وأسند قدميه على كتفها، ثم راح يسحب ذراعي إسترق بقوة ويقارن بين سبائتها، في حين استمرت فتاته الفراشة بالقبض على قدميها بإحكام. سحبها لأكثر من مرة وإسترق تغمض عينها مع كل سحبة دون أن تتأود. ثم هتف الشيخ: تعالوا.. انظروا.. ها هما الآن متساويان.. سأوازنكم جميعاً، فكلنا نعمل أمراض خفية لا تولمنا لكنها تراكم.. تعال يا ولد. ناداني بعد أن أعدنا إسترق إلى الفراش وتمددت مكاتها على السجادة في المنتصف، مددت ذراعي، فناداهم: انظروا. فيما كنت أنا أستشعر ملمس الفتاة الفراشة لقدمي.. ما طعم ملمس كفيها البيضاوين؟!.. كان شايبها لذيذاً. كان الشيخ يعبت ذراعي اليسرى بقوة، كرر الأمر ثلاث مرات وقال: خلاص. فأقمت ظهري لأجد وجه الفتاة قرب وجهي دون أن تسحب كفيها عن قدمي وهمست لها؛ شكراً، فابتسمت.

فَضْتُ واستلقى جدي مكاني على الفور. كنا جميعاً كصيبة يلعبون بمرح، وروحية الشيخ تبعث على ذلك. وحين جاء الدور على أبي ضحكنا جميعاً بما فينا إسترق حين نظرنا إلى جثته الضخمة وكرشه الذي يرفع دشداشته كخيمة. جلست أنا ملتصقاً بالفتاة قابضاً على قدم وهي على أخرى فشممت عطر النباتات الفائح منها بوضوح أكبر. وعلق جدي قائلاً لصاحبه: وهذا كيف ستسجبه؟. أجاب الشيخ

باعتداد: سحبت من هو أسمن منه. وحين قارن سبابتيه قال: انظروا إن جسده أكثر أجسامكم توازناً، أصابعه تكاد تكون متساوية، لا بد أنه يعمل كثيراً. العمل صحة.

حين عدنا إلى أماكن جلوسنا، توجه الشيخ بالحديث إلى ابنته، فأتته بصرة صغيرة وتوجهت إلى الباب الخارجي، نادى.. فحاء الأطفال راكضون، فيما حملت هي أفداح الشاي الفارغة وانصرفت. وقف الصغار أمام الشيخ طابوراً، كلما وصل أحدهم أدار له ظهره ونظر الشيخ خلف أذنيه، ثم يقرب ففاد من عيني إستبرق قائلاً: انظري. كلهم قد شرحت أذانهم.. إنه شيء بسيط، لا يوجع.. إلا وخزة بلكاد ستشعرين بها، ولو كان جرح أحدهم ملتئماً لشرحت أذنيه أمامك. ينطلق كل طفل راكضاً بعد الكشف إلى الخارج، بدأ أنهم معتادون على ذلك. عادت كوالاله تحمل في يديها مغسلة نحاسية وإبريق ماء. وضعتهما في المنتصف، ثم توجهت إلى إستبرق، أجلستها، أراحت شالها، ورفعت شعرها إلى الأعلى، وقطفت قرطبيها الفضيين، خلال وسطه نجمة تتدلى منه أقمار صغيرة يتوسط كل منها خرزة بلون مختلف. نظرت إليهما ووضعتهما في كف إستبرق الملقاة في حجرها. وعلق الشيخ: لا تضعيهما حتى يُشفى الجرح. اقترب من ظهرها وهو يستخرج من صرته شفرة حلاقة. ارتجف قلبي وتمنيت أن لا ترى إستبرق الشفرة، فلم يحدث، لأن الشيخ كان قد قصد ذلك.

مد أصابع إحدى كفيه إلى أذنها وطواها، مد الشفرة هناك وحز خلف الأذن بسرعة وخفة، ثم عاجل لتكرار الفعل بالأذن الأخرى. عند لحظة الجرحين أغمضت إستبرق عينيها وصرت فمها فقط. قرب الشيخ صرته، وراح يأخذ قليلاً بين طرفي إصبعيه من مسحوق أصفر كان فيها، ويسد به الجرحين الذين أحدثهما، ثم أخرج عود ثقاب،

بلله بلسانه، غرسه في المسحوق وراح يُكحل به عيني إستبرق حتى
نركهما مغلقتين. ثم قرب الصرة مفتوحة من أنفها أمراً: استنشقي،
استنشقي بقوة. وبعدها ربط الصرة ووضعها جانباً.

استدارت كوالاله وقرّبت المغسلة إلى صدر إستبرق والشيخ يقول:
خلاص انتهى كل شيء، اغسلي وجهك.. وتمخطي.. تمخطي. ثم عاد
إلى جلسته السابقة حوار جدي شارحاً ما قام به: هذا لعلاج مرض
(أبو صفار)، فتحتُ شرايينها ووضعت الدباغ، مسحوق قشور الرمان
الجافة، مخلوط معه مسحوق حبات الشجرة المضيفة. هذه نبتة لا توجد
إلا في قمم جبال حصاروست، تُثمر أجراساً صغيرة مثقلة بحبوب
صغيرة، ولكل جرس لونه الخاص الذي يضيء ليلاً، في الجرس سبع
حبات، وأدفع للمتسلقين خروفاً مقابل كل جرس.. إنما شجرة نادرة
ويحتاج الوصول إليها والبحث عنها جهداً ومغامرة. نعم تضيء
بأجراس ملونة.. مثل شجرة أعياد الميلاد عند النصارى. فسأل جدي:
وما هذه؟. وتطوع أبي ليشرح ذلك دون أن ينظر في عيني جدي:
نعم رأيتها عند أصحابي الألمان وهم يحتفلون في الليلة الأخيرة من
السنة. شجرة علقوا فيها أضواء ملونة وأجراس ورقية وأشياء أخرى..
هدايا وجوارب ملونة.

هدأت الجلسة بعد ذلك. على وجه إستبرق أمل وارتياح. نحن
نصت جميعاً إلى حديث الشيخين فيما تأتينا رائحة الطعام من الباب
الموارب. الشيخ عبدالشافي تحدث كثيراً عن زبائن كثير يأتونه من أنحاء
العراق ومن إيران وتركيا والكويت والسعودية والأردن وبادية الشام،
يعالجهم، يستضيفهم، بعضهم ليومين ولا يأخذ منهم مقابلاً لذلك، لأنه
يقول: هذا فضل من الله وأجري عليه هو. ثم نصح جدي لمعالجة مرض
السُكر بتناول خبز الشعير، وتقليل الملح، وترك السُكّر. "اشرب الشاي

مُرّاً، وجرعة من عصير شجرة الشيخ عند صلاة الفجر.. إنه مُر.. مُر جداً كالعقم ولكنه سينفعك، صدقني وستعود صحتك كالحصان."

كان الحديث بينهما يمتد، لهما الكلام ولي ولأبسي الاكتفاء بالاستماع، وهما مسترسلان حتى حول مائدة الديك الرومي المحاطة بأكواب اللبن. صُفّت أجزاءه المشوية على كومة الرز المخلوط بالزبيب وأنواع البهارات. تحدثنا عن حقول التبغ وأزهار عباد الشمس في كردستان وعن الأبناء والأحفاد والملائكة وأصحاب رسول الله وعن أصحابهما المشتركين، ذكرناهما أيام محاربة الإنكليز، وشمنا الحكومة الحالية. وبعد شاي العصر وقفت سيارة أخرى في فناء الدار ترجلت منها عائلة كردية؛ أطفال وعجوز قالوا إنها قد أصيبت بعين حاسد.

ودعنا الشيخ، تعانقا هو وجددي الذي دعاه لزيارتنا إلى القرية فاعتذر بأنه لا يستطيع ذلك لأنه لا يعرف متى يبعث الله له بمريض عليه واجب علاجه. وتعال أنت لزيارتي، فوعده جددي.. الذي لم يستطع الإيفاء بذلك لاحقاً.

في الطريق واصل جددي حديثه لنا عن ذكرياته المشتركة مع صديقه الشيخ. إستبرق كانت أقل طلباً للماء وأبسي لم يكن مقتنعاً بما رآه من علاج لكنه كان يتظاهر بالرضى طاعة لجددي. لذا سأل أصحابه الألمان حين عاد إلى كركوك فأصابتهم الدهشة واتصلوا هاتفياً بصديق طيب لهم في برلين فقال: هذا علاج ناجح أيضاً، إنه لمرض (اليرقان) حيث يذهب مسحوق قشور الرمان في الدم إلى الديدان ويطردها. واطمأن أبسي فيما كنتُ حائراً برسائلي إلى عالية طوال اليومين التاليين قبل فهوض إستبرق، إلى أن وجدنا محباً لنا وسط الدغل تحت أشجار الغرب قرب الشاطي، فصرنا نسميه عشنا وفيه عرفنا قُبلاتنا الأولى ومص الأصابع والشفاه المطلية بالتمر.

قررتُ أن أذهب هذه الليلة، أيضاً، إلى مرقص أبي، عليّ أجد فرصة مناسبة للحديث معه أو حتى نتفق على موعد أكيد أو على الأقل كي أعرفه أكثر.. هكذا حسمت الأمر وأنا أقترّب من نافذة المطبخ المطلّة على العمارة الجارة المهترئة السقف بحيث اتخذت الحمام أعشاشاً في مزاربيها. وكم حاولتُ تخريب هذه الأعشاش بعضا المكسرة لكنها كانت أكثر غوراً مما أستطيع الوصول إليه، لذا أكتفي بلعن الحمام القادم من (ساحة بوابة الشمس) وسط مدريد ومن (ساحة إسبانيا) حيث تمثال الكيخوته وتابعه سانتشو، اللذين طالما كنت أجلس أمامهما مطيلاً التحديق أيام تصاعد الشوق إلى جدي وأبي، كأنهما هما في كل شيء!. فيما الحمام حولي تأكل من أكف العجائز المتقاعدتين المسترخين على المقاعد ومن بسكويت السائحين ثم تأتي لتذرق عليّ ملابسني، ومن تحتها ملابس جاري الكوية. بل إنها تدخل أحياناً إلى المطبخ وتذرق في المواعين وعلى سطح التلاجة حيث فتيت الخبز. وقد أكدت لي بيلار، حينها، أنها شهدت بنفسها حين أفزعتها انطلاقة زوج حمام أول دخولها إلى المطبخ عند أول استيقاظها صباح أول ليلة نامت فيها هنا، قائلة: لقد نسيتُ أنت نافذة المطبخ مفتوحة، لماذا لا تشتري لك قطة. أعرف محلاً فيه قطط جميلة.. جميلة.. يا الله ما أجملها..!

كنت قد تركتها تلك الليلة نائمة في فراشي فيما أمضيت الوقت في الظلمة متذكراً عالية.. تفاصيل انفرادتنا في المخبأ الذي اكتشفناه وسط الدغل وأسميناه عشنا. حدث ذلك في اليومين التاليين لعودتنا

باستئبق من بيت الشيخ الكردي الذي شرح أذنيها، فمنعتها أمي من الخروج وأعمال البيت ووضع قرطها حتى تتماثل للشفاء، كنت أدور باحثاً عن عالية كي أعطيها قصيدة جديدة كتبها لها ورسالة. أكرر المرور جوار منزلهم، فلا أرى الحصان، ثم من بين بيوت القرية وعرازيلها وصرائفها. أجوب جزيرتنا القשמريه محترقاً الغابة صوب الشواطئ من كل الاتجاهات حتى وجدتها في الطرف الشمالي المتصق بالجبل، خائضة في الماء تغسل وجهها ورأس الحصان خلفها يطيل الشرب. اضطربت وترددت حتى فكرت بالرجوع أو الاختفاء، لكنها التفتت فرأتني وأوقفتها المفاجأة. قالت: آه.. مرحباً سليم. ثم تلفتت حولها إلى كل الجهات وتلفت أنا أيضاً. لم نر أحداً. قلت وأنا أخرج السورقة المطوية بعناية من جيبي فاتحة بعطر أمي: أريد أن أعطيك الرسالة، إستبق لا تستطيع الخروج من البيت، أريد الحديث معك.. هل أستطيع؟. قالت: أدخل في الدغل بسرعة.

تراجعتُ راكضاً لبضعة أمتار ووقفت في طرف الغابة مطلاً برأسني إليها. انتظرتُ هي حتى ارتوى حصارها، ثم أخرجتُ حبلاً من الخُرج الذي يحمله. شبكتُ رأسه بالرسن دون أن تكف عن تلفتها المتفحص للجهات. وقادت الحصان قادمة باتجاهي تغوص قوائمه في الرمل مثلما تغوص ضائعة في ارتجافات قلبي الكلمات التي كنت حضرتُها للقول. توغلنا في الغابة فاتحين درباً للحصان خلفنا حتى ربطناه على جذع شجرة غرَب ضخمة، هناك يأكل من العشب المزدهم تحتها، ثم درنا في المكان حتى وجدنا فسحة دائرية من الرمل ظليلة بفعل كثافة الأشجار المتشابكة في سمائها، فيما شجيرات أفتى من الأثل والسلماس والقصب تحيطها، يصل ارتفاعها إلى صدورنا. ولذا حين جلسنا على دائرة الرمل صارت أعلى منا بقليل. حدقنا ببعضنا وكنا

لأول مرة بهذا القرب.. كنا نسمع تسارع أنفاسنا ونبضات القلبين.
سألتي عالية عن حال إستيرق فرُححت أسرد لها تفاصيل رحلتنا العلاجية
مستمراً ذلك في استعادة صوتي وهدوئي. كنا نتحدث بصوت خفيض
فيه عدوية استيداع الأسرار، وبعد الانتهاء أعطيتها الرسالة والقصيدة
وسألتها: لم تقولي لي رأيك في قصائدي التي كتبتها لك. قالت: إنما غير
دقيقة.. يعني إنما كذب في كذب.

صدمني قولها فوجدتني أضع كفي على صدري وأقسم لها صدق
مشاعري نحوها. لكنها لم تدعني أواصل، فأوضحت: لا أقصد بأن
مشاعرك غير صادقة، وإلا لما تبادلت معك الرسائل ولما جئت معك إلى
هنا، وإنما أقصد أن قصائدك لم تقنعني لأنها مليئة بالكذب: تصف
نفسك بالفارس الذي يقطع من أجلي آلاف الرؤوس بضربة واحدة من
سيفه. ولو كنت قاتلاً لأحد لما أحيتك أصلاً، ثم إن هذا غير صحيح يا
سليم.. فأنت لم تر سيفاً غير سيف جدك المعلق في واجهة صالة
استقبال الضيوف وربما لم تلمسه، ثم إنك لم تتركب حصاناً في حياتك.
وتصف عيني بالواسعتين كبحيرتين فيما ترى أنهما صغيرتان مثل فتقين
أحدثتهما الفئران في ثوب، حتى أمتي نفسها تشبهني بالصينيين قائلة:
هاتي الصينية يا صينية. وأختي سلوى تصفهما بشيء آخر حين تغضب
مني. قلت: ماذا؟.. قالت: لا.. لا، إني أحجل.

توسلت بها أن تقول: عليك أن لا تحجلي مني بعد الآن. قالت
حسناً.. سلوى تقول أن عيني يشبهان.. يشبهان فروع الأرناب. قالت
ذلك وهي تبتسم موشكة على الضحك، فلاحظت بأن عينيها
الصغيرتين تغوران تماماً لتصبحا خطين صغيرين يجعلانها أكثر إغراءً
كمن تنادي غامرة. وواصلت: ثم تقول إن مشيتي هي التي علمت
أغصان الأشجار كيف تتمايل مع الريح وتحدث عن فلاة لي من

العموم والقمر وإنني سيدة الكون، وما أنا إلا فتاة لا تعرف ماذا يدور خارج قريتها.. وغير ذلك.. أقصد كل هذا كذب يا سليم. فلا داعي له.. ورسائلك تكفيني بواقعيتها وصدقها كي توصل مشاعرك إلي.

كان شعوري بالخيبة كبيراً بحجم هذه المفاجأة، وأنا أستعرض انهيار جهودي وسهر الليالي على ضوء شمعة معتصراً نفسي ومقلباً على قفائي وبطني في محاولاتي لتسطير قصائدي التي لا يتجاوز أطولها عشرة أبيات، لكنني كنت أشعر بصدق عالية ووجدتها على حق. لم أعلق وغيّرت الحديث إلى تفاصيل حياتية أخرى محاذراً، هذه المرة، من الانزلاق إلى التهويل والحلم.. على الرغم من شعوري بأن لقاءنا ذاك كان أشبه بالحلم وحبسي المتزايد لها حلم لم يتوقف عن الاتساع.

اتفقنا على اللقاء اليومي هنا في هذا المكان الذي سميناه عشنا، ونهضتُ ماداً لها يدي أعينها على النهوض. كانت كفها لدنة مثل وسادة جديدة، وشعرت بأن للملمس طعماً أيضاً.. لأن كفها تركت في نفسي أثراً عذياً لم تتركه كل الأيدي التي صافحتها طوال حياتي. سرت معها حتى وصلت حصانها، أعتتها في فك الجبل ثم رافقتها حتى خرجت من الدغل باتجاه الشاطئ. امتطت الحصان بقفزة خاطفة وانطلقت ملوحة لي بكفها. بقيت في مكاني أراقب ابتعادها، وشعرها طائراً خلفها مثل جناح طائر سعيد، حتى اختفت، فعدت إلى بقعة جلوسنا، استلقيت على ظهري مستعيداً للتفاصيل، أنفاسها، صوتها، ملمس كفها، إغماضة عينيها وما قالت. كان الرمل يسرب برودته اللذيذة إلى ظهري وأنا أحرق بزوج فواخت في الأغصان المتعانقة وخلفيتها السماء.

حين نزلت الشمس القريبة خلف الجبل القريب، سادت العتمة المكان، فنهضت ورتبت عشنا، سويت الرمل، قطعت الأغصان الممتدة

إليه، رصفت الحجاره التي وجدتها على حافته الدائرية ثم عدت إلى البيت. لم أحرر إستبرق بشيء. كنت ساهماً بقول عالية عن كذب قصائدي. وبقيت في تلك الليلة أتحين الفرصة لطرح السؤال على جدي، ترددت كثيراً.. فكرت طويلاً في إيجاد الكلمات المناسبة لطرح السؤال خشية غضبه وهره لي، وحين وجدته لم يعرج على الشعر في حديثه قلت: هل تحفظ كل أشعار عنترة يا جدي؟ قال: أحفظ الكثير له ولغيره ولكن لا أدري إن كانت القصائد التي أحفظها له هي كل أشعاره. فقلت وأنا أعرف بأن جدي يمقت الكذب ويعتبره "أشد بلاء حتى من القتل لأنه الخطوة الأولى إلى كل المعاصي"، ولكن ألا ترى بأن قصائد هؤلاء الفرسان فيها الكثير من المبالغات.. بل وتصل إلى حد الكذب أحياناً؟.

توقعت أن يكون رد فعله عنيفاً أو أن يصمت مفكراً لرهة، كما يحدث معه حين يُسأل عن قضايا تتعلق بالشرع، لكنه أجاب فوراً وبجملة واحدة: "إن أعذب الشعر أكذبه". ثم عاد لمواصلة قصته التي كان يسردها تلك الليلة. فيما بقيت أنا تحت وطأة مفاجأة أخرى لا تقل عن المفاجأة التي سببها لي قول عالية. لم أستطع استيعاب عبارة جدي جيداً في حينها، لكنني كنت قد حسمت الأمر بعدم معاودة كتابة الشعر مرة أخرى كخلاص من التناقض الذي أوقعاني فيه.. ثم لماذا أكتبه إذا كانت عالية لا تنتظره مني؟. قلت قراءتي للشعر بعد ذلك، وما كنت أقرأه منه بين حين وآخر، رحت أراقبه وفق ما قالته عالية ووفق ما قاله جدي. ولم أعد لكتابته إلا قبل أربعة أعوام هنا في لحظات اشتداد الحنين الذابح إلى عالية. كتبت مقاطع قليلة ومتفرقة، لم أنشر منها شيئاً ولا أفكر بذلك.. فقد تبدد حلم طفولتي في أن أصبح شاعراً ذا شأن، أو حتى كاتباً محترفاً، وما القصص القصيرة الثلاث التي

نشرتها في صحف المعارضة العراقية في لندن إلا ذكريات من أيامي في الجيش سطرتها لنفسي كي أؤطرها أو كي أتخلص منها أو لإشغال ساعات الفراغ هنا بمحاولات في التعرف على الذات والاقتراب منها أكثر.

رحنا نلتقي يوماً في عشنا، الذي صار أوسع قليلاً، أكثر نظافة وترتيباً وأكثر حميمية. غالباً ما يكون اللقاء في ساعة القيلولة حين ينام أهلنا. رحنا نتعرف على بعضنا أكثر، نحب بعضنا أكثر. جلبتُ لها دفترتي الذي ألصق فيه صور الفنانين والفنانات وصوراً لمشاهد تشبه الحلم الذي أحدث عالية في أخذها إليه، صور من الإعلانات التي أقصها من المجلات الألمانية التي يجلبها أبي، بيت خشبي أبيض تحيطه الأشجار وفي حديقته ورود ملونة على حافة بحيرة شديدة الزرقة، وخلفه جبل على قممه قبعات بيضاء من الثلج تلامس غيومات بيضاء هي الأخرى، لكن عالية كانت أقل انفعالاً مني بالأحلام..

تعلمتُ منها الرضى والقناعة والواقعية واستعداد التعامل مع الموجودات البسيطة التي تحيطنا.. تعلمت منها رباطة الجأش أيضاً والثقة باللحظات الراهنة. وفي دفترتي صور أخرى لنساء بعيون خضراء وشعر أشقر اخترع لهن أسماءً وأقول بأنهن ممثلات عالميات، متظاهراً بسعة معرفتي بفناني العالم على الرغم من أنني لم أكن قد دخلت صالة سينما في حياتي آنذاك. ولأننا نسارع إلى اللقاء وزاد تفكيرنا ببعضنا. كنا ننهض عن موائد أهلنا قبل أن نشبع، فأجلب معي حفنة من التمر، ألقتها في ورقة وأدسها في جيبي، وكانت عالية مثلي ومثل جدي وغالبية آل مطلق، نحب التمر كثيراً. حين نفدت حفنة التمر الأولى بقينا نرفع أكفنا الدبقة مؤخرين ذهابنا إلى الشاطئ. ولا أدري كيف تناولت كفتها ورحت أمص أصابعها، فأعجبته الفكرة وتناولت

بدورها أصابعي تمصها وتضحك في البداية.. ثم استسلمنا لخطر لذيذ
وارتعاشات غامضة قادت شفاهنا إلى بعضها دون أن نفلت يدها
أصابعي أو يدي أصابعها.

تلك أول وأعذب قُبلة في حياتي، شفتنا عالية رفيفتان. ومثل بقية
جسدها الذي رحمت أكتشف تفاصيله لاحقاً؛ لدناً وميناً في الوقت
نفسه، ليس مائعاً كالزبد لكنه كالجبين في طراوته. لشفتيها طعم التمر
والإنسان، هذا ما اكتشفته حينها: للإنسان طعمه الخاص أيضاً كما
لكل فاكهة أو كائن. صحتنا طويلاً بعد القبلة الأولى نحدق ببعضنا
باضطراب ومخافة، كنا نتحاور في النظرات ولم ننطق بكلمة واحدة بقية
اللقاء، فحضنا إلى الشاطي، غسلنا أيدينا ووجوهنا، ثم ذهبت وبقيت أنا
بعدها وحيداً كالعادة. لم أعد إلى العرش وإنما بقيت على الشاطي، ألقى
الحصى بعيداً وسط النهر، ثم جلست على صخرة مثل أبي ودليت
قدمي في الماء ساهماً حتى المغيب مستعيداً طعم القبلة وخائفاً من الله.

في تلك الليلة نمت متأخراً بعد تقلب طويل في الفراش واستيقظت
قبل الشمس متعرقاً مرتعباً إثر حلم رأيت فيه نفسي في الجحيم وزبانية
جهنم، الذين وصف جدي عملقتهم وقسوتهم، يسختون الحديد
ويكوون به شفتي. أزيز مفزع. وتصعد مع دخانها رائحة الشواء فيما
كنت أشعر بوجود الله مشرفاً على عقابي، يراقب تنفيذه من مكان
مرتفع لا أراه. وصوت جدي يدوي غاضباً: إنه يستحق، لقد حذرتم
جميعاً.. اللهم إني بلغت. اللهم فاشهد.

دفعت الدثار ونظرت حولي، كان الدخان يرتفع مع رائحة خبز
أمي الصباحي من التنور في طرف الحوش. فحضت قفزاً وركضت أروي
ظمئي من الجرة التي تتركها قرب الباب، شربت كثيراً من الماء ولم
أرتو. كنت أشعر بجفاف شفتي ووخز فيهما.

في اماء اليوم التالي، ترددت كثيراً في تقبيل عالية لأن جهنم كانت في رأسي مصحوبة بصوت جدي ونظرات الله. لكنني لم أستطع مقاومة إغراء اللذة فقررت تجاهلها، تأجيل التفكير فيهما، وأن خطيئتي هذه ليست كبيرة كالزنى، كنت أقول لنفسي مبرراً: عذوبة تقبيل عالية في هذا العالم تستحق أن أحتمل من أجلها عذاب كوي شفتي في العالم الآخر.

صارت حصة الكلام بيننا أقل لأننا رحنا غمضي أكثر الوقت بالتقبيل. أحبها.. كأنني "في جنة عالية لا تُسمع فيها لاغية". وتمتد أكفنا إلى الظهور، الأرداف، الرقبة، الشعر ورمانات الأكتاف.. لكن عالية أبعدهما حين نزلنا إلى الصدر أول مرة نحو إغراء بروز حلمتيها الرفاعتين لقماش ثوبها الشفيف مثل حبي حمص. قالت: حرام. فقلت لها: ستزوج.. تنزوج؟.. قمل وجهها واحتضنتني بقوة ثم تركت لكفي حرية التسلل من صدر فستانها.. وتمددنا على الرمل. صارت لاحقاً تمنحني نفسها كلياً.. وأحبها كلياً كأنني "في جنة عالية قطفوها دانية".

تحتفظ بأكثر التمرات طراوة إلى آخر وجبتنا التي راحت تُثرى بالخبز والخيار والتين. تفتح التمرة بأسنانها، تستخرج منها النواة وتلقها إلى السدغل، تمرر التمرة الخاوية على أصابعها مثل خاتم، ثم تمنحني الأصابع لأمصها. أراها تغمض عينيها الصغيرتين اللتين تحولان إلى خطين ترتفع منهما شعيرات الرمشين.. يحدث هذا لعينيها تماماً كما يحدث لهما حين تضحك أو تبسم بقوة. أحياناً تترك في إصبعها التمرة الخاتم لآكلها قبل مص الإصبع. أحياناً تأكلها هي حين لا تستقر التمرة على إصبع منتصب. بعد الأصابع تطلي شفيتها بالتمررة التالية.. كأنها تتمكج، تطلي شفتي وتدسها في فمي ثم نفرق بامتصاص طويل لشفاه بعضنا البعض.

لعالية زغب خفيف على شارها لا يراه إلا اثنان: محب لها أو كاره. المحب، أنا، يرى فيه مكملاً لجمالها ومؤخراً للمحافظة على غسل التمر مما يطيل في عمر القبل. أما الكاره فيتخذ منه عيباً يهوله لأنه لا يرى في جسد عالية من عيب آخر. تماماً كما يحدث الأمر مع صفر عينيها اللتين صرت أحب صفرهما وغورهما في وجهها حين تضحك أو تستسلم لعدوبة تلامسنا.

سألتي إستيرق، بعد أيام حين راحت تتماثل للشفاء، عن رسائلي، فأخبرتها بمسألة العش الذي نلتقي فيه، دون أن أدلها على مكانه، والذي نترك فيه رسائنا لبعضنا فيه حين يتعذر اللقاء. ندسها في فطر حددناه في أسفل جذع الشجرة المنتصبية على حافة العش الذي تستند عليه عالية أحياناً، أو تحت حصة بيضاء اتفقنا عليها. قلت: يا إستيرق رجاء لا تخبري أحداً بذلك أبداً. قالت: اطمئن. وقد فغرت فاهما دهشة، وربما أقامت لها مع صراط عشهما الخاص أيضاً، لأنها صارت تختفي من البيت كلما وجدت فرصة لذلك.

لاحقاً.. أخذت عالية تفتح أزرار صدر ثوبها أو تخلعه ثم تظلي هديها بعصير التمر وتستلقي على قفاها على الرمل، مغمضة عينيها وتاركة لي لعقهما، مصهما، حبهما.. ولها التأوهات الراحشة. ذلك ما جعلني أبداً لاحقاً بالنظر إلى المرأة من صدرها، ولعالية هديني مثاليين، ليسا كبيرين ولا صغيرين، حين أفتح كفي على أحدهما لا يفيض منه عنها إلا القليل وتتنصب حلمتها تحت لساني. عالية مثلي ومثل جدي في عشقها للتمر، لكنها أشد مني محبة للنهر.. شدة حبها له هي التي جعلتني أحبه أولاً. لكنني رحت أغار لاحقاً من كثرة حديثها عنه وهو أماننا، تصوره أجمل مما أراه، ثم صارت علاقتي به مزيجاً من العداة والمرافقة بعد أن غرقت فيه عالية أواخر صيفنا ذاك.

طال ، معها، ذات مرة، ألا تبتعد في الماء عند السباحة. وأجابتي: لا
نصف إنه صديقي.. وكانت تقول: إن الحياة هدية جميلة من الله يا
سليم، ليس لنا أن نعترض على حجمها أو طولها، وإنما نتقبلها
بشكر ومتعة. لذا كلما تذكرت عالية أشكر الله وأعاب الحياة على
أخذها مني أجمل هدية منحتني إياها.. على أخذها مني عالية. أعاب
النهر وأرميه بالحجر وأبكي ثم أرمي بنفسي في أحضانه متمنياً أن
يأخذني إليها.

أخذها مني مساء العيد، حين كنا نخرج جميعاً إلى شاطئ النهر.
تتجمع العائلات على الحافة التي يلتقي فيها الرمل بالحصي، تفرش
ملاءاتهما على الأرض وتصف الأمهات أواني الأطعمة والحلويات
المصنوعة ليلة الأمس. الأطفال يلعبون متراكضين حول دوائر الكبار
والجبل يردد صدى صرخاتهم. الآباء يقيمون المواعد ويشوون اللحم
فتختلط دموعهم التي يسببها الدخان بالتي يسببها الضحك. نسبح في
النهر كلاً في جهة مخصوصة وغير بعيدة، الرجال هنا والنساء - دون أن
يخلعن فساتينهن - هناك، وللأطفال فقط حرية التنقل بين الجهتين
متوسلين بالكبار أن يعلموهم السباحة. وجددي يردد أمراً: علموا
أولادكم الرماية والسباحة وركوب الخيل.

كان يجلس هناك منفرداً على كرسية الوحيد في المنتصف، على
تلة واطئة يراقب الجميع. لقد جلب له أبي هذا الكرسي من كركوك
حين ازداد مرض السكر امتصاصاً لبدنه حتى نتأت عظامه وصار
الجلوس المباشر على السجادات يؤدي ظهره وعظام حوضه، لذا
يصطحب معه وسادة هي مربع إسفنجي يضعه تحته أينما جلس، بما في
ذلك على الكرسي الوحيد في القرية وكان مثار إعجابنا جميعاً لأنه
يطوى ونشر بخفته حين يحمله أحدنا سائراً خلف جددي إلى المكان

الذي يريد. يقول أبي إن الألمان لديهم الكثير من الكراسي ومثل هذا ما يستعملونه للاسترخاء عراة تحت الشمس.

كل الأمهات يجلبن نماذج من أفضل أطعمتهن لجدي، لكنه لا يأكل إلا القليل ويوزع المتبقي على الأطفال المقربين إليه. كنا نحن الفتيان نسترق النظرات إلى جهة النساء متصيدين مشاهد التصاق الشياب بالأجساد كي نجترها لاحقاً في اهتزازاتنا السرية. بعضنا كان يبالغ في ابتعاده في النهر أو يتفنن بقفزاته كي يلفت إليه نظر الفتيات.

فجأة تعالي الصراخ من جهة النساء: عالية.. أين عالية؟.. عالية غطست ولم تطلع.. عالية تأخرت بالطلوع. تراكضنا جميعاً إلى هناك. اختلطنا. خرجت جميع النساء من الماء واصطففن على الشاطئ مصفرات الوجوه مرتعبات وأصابهن تشير إلى موضع غطسة عالية الأخيرة. كانت أمها أشدهن صراخاً، تصيح وتندب على صدرها، وكان قلبي أشد قلوب الحاضرين انخلاعاً.

ألقينا، نحن الذكور جميعاً، بأنفسنا في المكان الذي خرجن منه وحيث تشير الأصابع. كنت أعطس أعمق ما أستطيع. أفتح عيني تحت الماء غير مكثرت بدخول خيوط الطحالب فيهما. لا أرى سوى الحصى في القاع بقعاً واسعة، ولا أخرج حتى أوشك على الاختناق. فأرفس القاع بقدمي وأنطلق إلى الأعلى دافعاً رأسي إلى السطح، أعب الهواء لاهثاً على عجل خاطفاً نظري إلى من حولي عل أحدهم وجدها، ثم أعطس قبل أن تشبع رئتاي من الهواء.. كانت دقائق متوترة، مريرة، كابوساً من دقائق، من أيام، من أعوام.. كابوساً طوله العمر بأكمله.

التقطني أبي حين انتبه إلى تجبطني قربه وأنا أوشك على الاختناق. أتقياً ما كرعته من ماء، رفعتي بذراعيه القويتين وسحبني إلى الشاطئ ناهراً. كانت سيقان النساء الواقفات تطوقني، وأمي تعمي

حواري تمسح الماء عن وجهي ومخاطي بذيل ثوبها. فيما أفلت وجهي من كفيها كي لا أنقطع عن مراقبة الباحثين، وصدري يعلو ويهبط بفعل تسارع التنفس وطبول القلب. أمني تشد على ذراعي كي تمنعني من النهوض. اقتربت إستبرق من خلفي مشفقة تحيط ظهري بمنشفة وهي تحتضني، كفاها تمسحان كفي بمداعبات قدئة تفيض حناناً وأشعر بارتجافها.. ثم انفجارها بالبكاء وسقوطها علي محتضنة حين شاهدا جميعاً أحدهم يرفع جثة عالية إلى السطح. كفاي تحاصران وجهي دون أن أحول عيني عنها، ولا أقوى على النهوض.

يرجع العويل من جهة الجبل أشد علواً مما ذهب. تخلق الساجون حول حاملها، سحب أحدهم ثوب عالية مغطياً ساقها فيما يتقدم بها حاملها نحونا. كانت نائمة على ذراعيه والماء يقطر منها، شعرها الطويل يتدلى مثل ذراعيها. وكان آخره هو آخر من ودع النهر خارجاً منه ومتصلاً به عبر خيط الماء الذي جعل من شعرها شبيهاً بذيل حصانها حين تفسله.. وليس شبيهاً بجناح طائر سعيد حين كان يطير خلف رأسها ممتطية حصانها المنطلق.

اقتربوا.. عالية نائمة على ذراعي حاملها بوداعة وتمطر على النهر من أنحائها. كل شيء فيها يشير إلى الأسفل، إلى النهر، قدماها، ذراعها، أصابعها، شعرها، ثوبها.. باستثناء صدرها؛ مرتفعاً كما عرفت. قبتان.. والثوب المبلل يكشف التفاصيل. كان ذلك آخر ما رأيته منها قبل أن تغيب خلف الأجساد المحيطة بها وهي تحملها إلى حيث كان يجلس جدي. مددوها هناك أمامه على الحصى الناعم منتظرين منه ما ينصحهم بفعله. الكل انسحب إلى هناك. صفا سطح النهر وأنا لا أقوى على النهوض. سقط رأسي بين ركبتي محاطاً بذراعي وأجهشت بالبكاء. إستبرق تحتضني من الخلف ويهزنا بكاؤنا معاً فيما

ضممتني أمسي إلى صدرها، تقبل رأسي وتقول: أعرف يا حبيبي..
أعرف كل شيء.. لم تقل أكثر من هذا حول جسي لعالية بعد ذلك
أبداً، لكنها كانت ترقبني بعينين حائيتين وقلب كسير. وازداد في الأيام
اللاحقة قرب إستبرق مني، مواساتها، شفقتها ومشاركتها لبكائي
وحيدين في الغرفة الموصدة أو على الشاطئ.

كانت ترافقني أحياناً في زياراتي السرية إلى قبر عالية الوحيد في
سفح الجبل قبل أن يتحول فيما بعد إلى مقبرة واسعة لموتى قريتنا.
تبحث معي عن الحصى الأبيض لصفه على القبر، تنظف الشاهدتين
الصخريتين وتعترف: أنا الذي أخبرت أمي بعلاقتكما، فرحت كثيراً
وقالت أن أم عالية قد فرحت أيضاً واتفقتا على أن يفتاحا الأبوين
بزواجكما ليكون في العيد القادم.

لم أجد أية رسالة من عالية في شق الجذع الذي كانت تسند عليه
ظهرها في عشنا مانحة إياي صدرها المطلي بالتمر. لم أجد رسالة تحت
الحصاة البيضاء، ولم أعد إلى العث بعدها أبداً حين وجدت في آخر
زيارة له أن أحدهم قد تغوط في منتصفه حيث لم يعد عشنا سرياً مادام
أحدهم قد وجد فيه مكاناً مناسباً للتغوط.

مشهد عالية النائمة وهي تمطر على النهر كان آخر ما رأيت.
وصدرها الحي وسط موتها أكثر مشاهدتها حضوراً، اصطحبته معي
دائماً. وكان أنيسي مع التمر في لحظات عصف شوقي إليها. مرتين
فقط استحضرتة لممارسة اهتزازاتي السرية؛ مرة حين كنت في الجيش
على مثلث الحدود العراقية التركية السورية عند ضفة نهر الخابور،
وبعد خفارة حراسة ليلية طويلة كانت عالية أنيسي الوحيدة فيها،
مشتاق إليها إلى ملامستها. صورتها تشيع في شرايبي الدفء
وارتعاش العذوبة.

انحدرتُ إلى النهر، بعد أن سلّمتُ دور الحراسة للجندي اللاحق. كان القمر ساطعاً يجلل الكائنات والفضاء بضوء فضي. تركت بندقيتي على الشاطئ، خلعت ملابسي فوقها وجزمتي جوارها ثم تسللت إلى الماء مهدوء، مددت يدي تحت الماء إلى المتوتر مني. أغمضت عيني على ذكرى عالية ومشهد هديها القبتين تحت آخر فساتينها المبللة، ورحت أهتز.. أهتز حتى ذروة الشوق واللذة. شعرت بعدها بالفراغ، بالخجل وبالذنب على ما فعلته بها ميتة.. وبكيت.

قررت عدم تكرار ما فعلت. لكنني كررته قبل أربعة أعوام حين نامت بيلار في فراشي بعد حفلة التقييل وتلمس ثديها. فبعد أن شعرت بأنها قد غفت وعطرها يملأ المكان، فيما أنا ممددٌ على الكنب في الصالة أتحمس المتوتر تحت بجامتي وأتذكر عالية.. حتى بقي على موعد خروجي إلى عملي في توزيع الصحف نصف ساعة، نُهضت إلى الحمام، أغلقت بابه خلفي بإحكام، وبخدر من إحداث أية ضجة. ملأت الحوض بالماء وتمددت فيه مهدوء، مددت يدي تحت الماء إلى المتوتر مني. أغمضت عيني على ذكرى عالية ومشهد هديها القبتين تحت آخر فساتينها المبللة، ورحت أهتز.. أهتز حتى ذروة الشوق واللذة. شعرت بعدها بالفراغ، بالخجل، وبالذنب على ما فعلته بها ميتة.. وبكيت. ثم سارعت في الاغتسال. ارتديت ملابس العمل وتناولت ثمرتين وجرعة حليب بارد ثم خرجت تاركاً بيلار في فراشي، ومشعلاً سيحارتي حال خروجي من باب العمارة.

حين وصلت مقر الشركة، وجدت أنطونيو جالساً في السيارة بانتظارني ويدخن، بعد أن أكمل رزم وتحميل الصحف التي علينا توزيعها. جلست قربه خلف المقود وأدرت المحرك ثم سقتها منطلقين كالعادة. صفعتني على ساقِي اليمنى قائلاً بقصد: عرفتُ بأنك ستصل

متأخراً.. ها كيف كانت ليلتك؟. قلت له: تمام.. لكنني تركتها نائمة في شقتي. قال: لا تقلق. بيلاز فتاة جيدة أعرفها منذ زمن طويل.. على فكرة إنما تنحذب إلى الأجناب أكثر. آخر أصحابها كان إيطالياً.

جمعت ملابسي من حبل الغسيل، وأحكمتُ إغلاق نافذة المطبخ، متذكراً ما قالته بيلاز، كي لا يدخل الحمام. حاسماً قرار ذهابي هذه الليلة إلى مرقص أبي. قالت روسا هذا الصباح، بكلمات عربية لفظتها بركاكة، بأن السهرة هذه الليلة ستكون جميلة.. وليس هذا هو الذي يدفعني للذهاب، إنما أبي.. علي أن أجد فرصة للحديث معه، أو نتفق على موعد أكيد.. أبي الجديد الذي طلع في حياتي هنا.. هكذا فحاة كراس ينبثق من الماء بعد غطس طويل... تُرى هل مازال أبي يتذكر مساء العيد الذي غرقت فيه عالية؟.. هل مازال يتذكرها كما أتذكرها أنا بعد كل هذه الأعوام؟.

وصلتُ إلى المرقص في الساعة الثانية عشر إلا ربع ليلاً في نية لاستباق ازدحامه، كما هو الأمر في بقية المراقص، حيث يبدأ الصخب الراقص بعد الواحدة ويمتد حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر. مرقص القشامر في شارع بينيراس Veneras على الرصيف الأيسر حين تكون - مثلي - قادماً من تقاطع سانتو دومينغو، أسفل عمارة قديمة، ربما كان مخزناً لها في البدء وأيام الحرب الأهلية الإسبانية. ولكن الزمن فتح له باباً على الشارع الضيق ليتم استخدامه كمحل لبيع المشروبات أولاً ثم مرقص يكتريه الآن أسي وصاحبه روسا، بعد أن أعادا ترتيبه ليكون كذلك. يقابله الآن على الرصيف الأيمن محل لعائلة صينية يبيع المواد الغذائية والكرزات والمشروبات البسيطة والسجائر حتى ساعة متأخرة من الليل لأنها تعيش في القسم الخلفي منه.

البوابة الخارجية للمرقص سوداء من خشب، وجدتُ أمامها فتاة تبكي وفتاها يسترضيها، يقبلها فتدفعه بليوننة وتمسح بعينيها. كانا يقفان تماماً أمام العبارات المكتوبة باليد. حين مددت يدي إلى مقبض الباب أزاحا نفسيهما عنه قليلاً. تلي البوابة الخشبية بوابة أخرى من شبك حديدي. كانت مفتوحة ومربوطة بسلسلة على الحائط، ثم درج نازل على امتداد مترين ونصف تقريباً، ينعطف في منتصفه وكله مغطى بسجادة حمراء معتمة.. بل تكاد تصبح سوداء بفعل كثرة مرور الأحذية عليها وتفسها للدخان الذي كان، مع الموسيقى الصاخبة، هو أول من استقبلني حال فتحي لبوابة الخشب السوداء. ثم لفظ المتحدثين

وضحكات تعالي، عرفت منها ضحكة روسا ثم ضحكة أبي بعد أن صرخ بأحدهم بالإسبانية: كابرون.. (يا تيس). حين نزلت آخر درجة وجدتم يقفون قرب البار، وبالفعل لم يكن عددهم يزيد عن خمسة عشر شخصاً، كلهم يحيطون بأبي، كؤوسهم في أيديهم ويضحكون.

فاطمة في مكانها الدائم خلف البار، قرب صندوق الحساب. وما إن رأني أبي حتى ناداني باحتفالية وقادني إلى تجمعهم، يُعرفني على الواقفين بحركات مسرحية: سليم.. هذا سليم. ثم تلا أسماءهم وهو يشير إلى كل واحد منهم واضعاً سببته في صدره، بما في ذلك الفتيات، حيث يضع إصبعه بين نمودهن أو عليهن ساحباً إياه بسرعة بحركات كوميدية ويضحكون. فيهم ألمان وهولنديون ونمساويون وأسبان، فقد قدم آخرهم، وكان بديناً قصير القامة: خموس.. كابرون. وانفجر الجميع بالضحك. لم يقل لهم إنني ابنه وإنما: سليم. فقط. ثم لف ذراعه على كتفي حين وقفت جواره مبيناً لهم حميمية علاقتنا. وسألني روسا: ماذا تشرب؟ فقلت لها: لا شكراً.. ليس الآن.. سأطلب بنفسني.. بعد قليل.

كان أبي يتحدث مع البعض بالألمانية ومع آخرين بالإنكليزية ومع الأسبان بكلمات معدودة أكثرها شتائم لكنه يستعين بفاطمة للترجمة حين يتطلب الأمر ذلك، أو بروسا التي يتحدث معها بالثلاث: الألمانية والإنكليزية وبشيء من العربية. يحمل في إحدى كفيه كأساً وفي الأخرى سيجارة، ومع ذلك لا يكف في أثناء التكلم عن استخدام يديه والتلويح بهما. وما أكثر ما كان يلف ذراعه التي تنتهي بسيجارة على رقاب الآخرين. أما إذا رمى السيجارة فأصابعه تقبض أينما وقعت قارصة لحم المحيطين المنتشين بحضوره الصاحب.

تواصل وصول زبائن جدد نازلين عبر المدخل الأسود بسجاده
الحمراء كلسان ممدود يشبه فماً مفتوحاً يتقيأ أشخاصاً كلهم يأتون إلى
دائرة المتحلقين حول أبي ويتمازحون معه فتكبر دائرتهم وتحتشد،
ولأن أغلبهم يعرف أغلبهم وجدت نفسي شيئاً فشيئاً على هامش
الدائرة، وحيداً لا أعرف أحداً منهم ولا أحد مدخلاً أو مقدره في
نفسي على إيجاد للتداخل مع مزحاقم المتألفة بصحب ضاحك أو
ضحك صاحب، فانسجبت بمدوء نحو دكة البار وجلست على مقعد
مرتفع بين حفية البيرة وصندوق الحساب، قبالة مكان وقوف فاطمة
الدائم. حيثها فابتسمت بعدوبة فيما كفاها لا يكفان عن تشيف
الكؤوس المغسولة بمنشفة مربوطة في طُرف صدرية العمل البيضاء التي
تعلقها في رقبتها كصدريات الطبخ.

قالت: ماذا تريد بيرة ألمانية أم إسبانية.

قلت: لا هذه ولا تلك فأنا لا أشرب البيرة ولا أي مشروب
كحولي.. أعطيني كوكا كولا لايت.

قالت مبدية دهشة لا أعرف مدى جديتها: صحيح لا تشرب!..
ممتاز والله.

- وأنت؟.

- أنا أيضاً لا أشرب الكحوليات.. وإذا ما اضطررت للمعاملة
أحياناً فأشرب بيرة خالية من الكحول.

- كم سنة لك هنا في إسبانيا؟

- أربع سنوات تقريباً.

- ومنذ متى تعملين هنا؟.

- منذ ستة أشهر.. منذ افتتاحه.

- وكيف؟.. أعني كيف وجدت هذا العمل؟.

ضحكت مائلة برأسها إلى الخلف ومستبدلة الكأس الناشف بآخر
مبلل كي تشفه.

- إنها الصدفة.. أو الحظ.. لا أدري.. فقد كنت مارة من هنا
ذات صباح ودخلت إلى المحل الصيني، الذي أماننا، تعرفه؟.. أردت أن
أشتري بعض الدفاتر والأقلام وأشياء أخرى.. يعني قرطاسية لأحتي،
هي صغيرة عمرها أربعة عشر عاماً، وأريدها أن تكمل دراستها ولا
تتركها مثلي.

مع ازدياد الداخلين تزداد الكؤوس الفارغة التي تجليها العاملتين
الأخريين من أنحاء المرقص إلى فاطمة، كما يحملن عائدات بعض
الطلقات لآخرين. وكانت فاطمة تتوقف عن حديثها معي
لتحدثن، تأخذ منهن العائد الفارغ وتملأهن المطلوب، فيما أنتهز
أنا الوقفة الحوارية لارتشاف شيء من الكوكا كولا وللنظر إليها
بتمعن أو لاستطلاع المحيط، حيث اختفى أبي بين الجموع، لا
يُرى منه إلا رأسه بصفيرته الملونة، ولا يُسمع منه إلا ضحكته
المجلجلة عالياً والمسورة بصدى ضحك الآخرين.. وتتخلل ذلك
شائمه بكل اللغات.

- المهم.. وجدتُ هناك السيد نوح، صاحبك، كان يبحث عن
أشياء تتعلق بالترميمات الأخيرة: براغي ومسامير وزوايا رفوف وأشياء
من هذا النوع.. فاصطدم بي داخل المحل وقال على الفور بالعربية
(عفواً).. فأجبتُه أنا بالعربية: لا شيء.. وهكذا قال لي: أنت عربية؟!..
وراح يسألني عن الأسماء الإسبانية للأشياء التي يريدُها، وأساعده. فقال
لي بعد أن وقفت معه كترجمة حتى انتهى من الدفع: هل تريدان
العمل؟!.. قلت: نعم ولكن بماذا؟. فقادني إلى هنا حيث كان عمال
الديكسور على وشك الانتهاء.. وهكذا رحنا نتحدث بالأمر حتى

اتفقنا.. لكن المفاجأة التي قد لا تصدقها، تكمن في الشرط الذي فرضه عليّ قبل الاتفاق.. عفواً لحظة..

اقترب منها أحدهم، ربما هولندي، يطلب منها شراباً ممزوجاً (كوكتيل) وبما أنه لم يكن يعرف التعبير بالإسبانية سألته فيما إذا كان يتحدث الفرنسية فقال نعم وراحا يتحدثان بالفرنسية حتى أنجزت له ما طلب وابتعد شاكرأ.

فعدت للاقتراب مني وعلى وجهها ابتسامة عذبة تشي بأنها تتعلق بما سترويه.

- لقد اشترط عليّ أن أحفظ "سورة البقرة" كاملة قبل أن يوقع العقد لي.

ضحكة أبي تجلجل، والدهشة تهزني لذا ربما سألتها: أنت متأكدة!؟

- أقسم بالله العظيم.. وأهداني نسخة من القرآن.. أنا أيضاً قد أصابني الدهشة مثلك.

- ها.. وبعد؟

- أخذتُ القرآن وقلت له أمهلني أسبوعاً..

الزحام يتزايد في المرفص وأربعة أشخاص دنوا يسألون فاطمة شراباً فيما إحدى العاملات تطلب لآخرين، فجاءت روسا وسألت فاطمة فيما إذا كانت بحاجة إلى أن تساعدنا إحداهن.. قالت: لا. في البداية، ثم قالت: نعم. بعد أن جاءت زبونة أخرى وفتاها. أظن بأنها التي كانت باكية في الباب عند دخولي. استدارت إحدى الفتيات العاملات من أقصى دكة البار لتقف مع فاطمة استحابة لأمر روسا التي دنت مني وربت على كتفي بلطف وقالت بتقليدية مدبرة متجر محترفة: ها.. كلشي تمام!؟

- نعم، شكراً.

- أنظر إليه.. هو الآن في أوج احتفاليته.

- نعم.. نعم.. أراه.. أو بالأحرى لا أرى إلا صغيرته وهدير

ضحكته.

ضحكت هي الأخرى وابتعدت لشأن آخر.. أدركتُ من ذلك أن دورها هو الإشراف العام، ودور أبي هو مرافقة الزبائن، وفاطمة صندوق الحساب وتحضير الكؤوس والطلبات تساعدنا إحدى النادلتين إذا ما اشتد الزحام.

كانت تبسم لي كلما اقتربت من الصندوق الذي أجلس أمامه وأسد ذراعي على حافته.. وحين لم يبق إلا اثنان تولت الفتاة الأخرى أمرهما، فوقفت فاطمة أمامي دون أن تكف كفاها عن العمل في تدوين فواتير الحسابات أو تنشيف الكؤوس أو إعداد الصحون الصغيرة من الزيتون والبطاطا.. فسألتهما:

- وماذا حدث..؟.

- وافقت بالطبع.. لأنها فرصة كنتُ أنتظرها ومن خلالها أحصل على عقد جيد في عمل ثابت بعد أن أمضيت الأعوام السابقة بالتنقل بين تنظيف البيوت ورعاية الأطفال والشيوخ.. وفي مطاعم مهاجرين بلا عقد..

- وحفظت سورة البقرة كاملة؟.

- نعم.. فقد رحمت إلى البيت وحبست نفسي فيه كتلميذة تُعد لامتحان البكالوريا، فلم أكن قبلها أحفظ من القرآن إلا سوراً قصيرة.. وكانت أختي تساعدني في الحفظ وتضحك مني في الوقت نفسه، وهي تراني مثلها أدرس من جديد.. ولكنني بقدر ما استغربت هذا الشرط.. بقدر ما منحني الثقة بالسيد نوح..

- ومازلت تحفظينها؟

- نعم.. لأنه يمتحنني بها في نهاية كل شهر قبل أن يمنحني راتبتي
ويخصم مني يورو واحد على كل خطأ.. فيما يكرمني بخمسين يورو
على راتبتي إن لم أخطئ فيها.. هكذا كان الاتفاق.. يمتحنني بلا
كتاب فهو يحفظ القرآن كاملاً.

لم أجد ما أقوله غير جحوظ عيني.. وثمة انتعاشة لألمي الغامض
بكون أبي مازال، في جوهره، كما عرفته، فيما يزيد من حيرتي
ودهشتي هذا الذي أراه منه وفيه.. هذا المغاير له تماماً.

- وماذا عن بقية الفتيات العاملات.. هل اشترط عليهن شيئاً؟

- لا.. طبعاً.. فهن إسبانيات نصرانيات واختارها السيد نوح، متخذاً مني
مترجمة له أيضاً كما قال لروسا.. وروسا لا ترفض له طلباً.. إنها تحبه
بجنون، وتقول بأنها لم تعرف رجلاً مثله في حياتها أبداً.. وفي الحقيقة أنا
كذلك لم أعرف رجلاً مثله بقوة شخصيته وكبر قلبه وذكائه
وحيويته.. أنت من قرينه أيضاً من العراق؟

- نعم.. نعم.

- أنا أحب العراقيين، كلنا نحن المغاربة نحبهم.

ثم ابتعدت تساعد الفتاة الأخرى، وبقيت أنا أشعل سيحارة إثر
أخرى، مرتشفاً الكوكا كولا ومتفحصاً ما حولي. ازداد الضجيج
واحتشد المرقص بشباب من شتى الجنسيات والتوجهات.. ولا أدري
كيف اجتمع فيه الهيبون والسياح والشقر والسود ومهاجرون ومثليون
جنسيون والرؤوس الحليقة من العنصرين.. الكل غاطس في غيمة
الدخان وتأرجح كرة الأضواء الملونة في السقف فوق دكة المسرح
حيث ارتقاها أعضاء فرقة برازيلية وراحوا يأخذون مواضعهم مع الآتم

الموسيقية، يتفحصونها والمغنية السمراء تعدل مشد صدرها وتؤكد من جاهزية الميكروفون. صعد أبي وافتتح الحفل بفقرة كوميدية، هي خليط من لغات وروسا تترجم أحياناً، مازح خلالها بعض القريين منه. ضحك. تصفيق... ثم اشتعل المكان بأغاني السامبا وماجت الأجساد راقصة يهزها الطبل الذي يقرعه أسمر مفتول العضلات متصبياً عرقاً وهو يعرض على شفته تركيزاً تارة ويطلق صرخته نشوة ساخنة أخرى.. تزيد من اشتعال اهتزاز الراقصين..

نظرتُ إلى ساعتِي فوجدتها تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل. نظرتُ إلى فاطمة فوجدتها تتحرك بكثرة، تكاد تطير بين الجهات تلبسي الطلبات كمنحلة مؤدية عملها بلباقة وخفة دون أن تكف عن التبسم. وعلى الرغم من طغيان الصخب الذي يجبرنا على تقريب الوجوه والصراخ عند التحدث.. سألتها:

- كيف تم جمع كل هؤلاء المتناقضين معاً؟!

ضحكت وقالت: - الكل يسأل السؤال نفسه.. إنه صاحبك نوح، لذا يسميه بعضهم بالرئيس أو المعلم وبعضهم يسميه المسيح لأنه جمع بين الذئب والحمل وآلف بينهما.. لكنه يرفض تسمياتكم ولا يقبل إلا اسمه الذي يجده البعض أكثر تطابقاً معه لأنه جمع في مركبته الواحدة بين كل الكائنات على اختلاف أنواعها.. وروسا تقول إنه يجب اسمه كثيراً ويقول بأن الله هو الذي سماه بهذا الاسم.

فجأة.. ومثلما يحدث في مشهد فيلم كوميدي، بينما كنا نتحدث عن قدرته على الجمع بين المتناقضين بسلام، تعالت ضجة وصياح بين زبونين وسط حلبة الرقص، وطارت من هناك قنينة بيرة فارغة تحطمت على أصابع الكف اليسرى لفاطمة التي كانت تمسك بالحنفية من أعلى نصب لأحدهم، فصرخت واختلط دمها بشراب الكأس الذي كانت

تملأه. توقفت الموسيقى وانبتق أبي من بين الجموع مقرباً من فاطمة يهدئها ويتأكد مما أصابها؛ فكان جرحاً موزعاً على ظاهر أصابع كفها الأربعة، قال لها: آسف.. وبسيطة. وأمرني بشد جرحها والعناية بها ثم عاد إلى المتخاصمين وعلا صوته على أصواتهم جميعاً، زاجراً، وفرق بين المتخاصمين بمساعدة آخرين حتى باعد بينهما وأجلسهما، وهو يشتمهما ويؤنبهما وسط صمت الجميع..

في أثناء ذلك، انتقلت أنا إلى خلف دكة البار مع فاطمة، وأمسكت بكفها الدامية أغسلها بالماء وأهدؤها، فيما في الحقيقة كانت هي هادئة أصلاً، لكن المفاجأة قد أفرعتها قليلاً. ورحت أنشَف كفها بصدريتها التي سارعت هي إلى خلعتها، ورأيت حجم صدرها لأول مرة، فوجدته صغيراً لكنه بنهدين متينين متباعدين ومتصيين مثل لهدى فتاة في أول طلوعهما. جاءتني روسا بقطن ولغاف طبيين، وقتينة يود أخرجتهما من صندوق صيدلية صغير كان معلقاً في إحدى الزوايا المظلمة.. فأجلستُ فاطمة على كرسي قريب ورحت ألف لها كفها دائراً حول الأصابع منفردة ثم مجتمعة.

كان أبي قد صعد إلى دكة المسرح غاضباً، وراح يخطب بالجمع عبر الميكروفون، مذكراً إياهم بشروط محله، ورفضه للعنف بكل أشكاله، مازجاً في أسلوبه بين الجدية والمزاح. وبعد انتهائي من شد كف فاطمة، تمصت معي وذراعي على كفها، ورحنا نتطلع إلى أبي الذي وجدته يقول في تلك اللحظة خاطباً بالإنكليزية مترجماً لنفسه إلى الألمانية وروسا حواراً مترجمة إلى الإسبانية: هذا مكان للفرح، للتعايش، للتسامح، للتعارف، للحب، للسلام، للرقص، للحياة، للتقبل (يقبل روسا ويضحك الحشد) وللتمتع بمداعبة الأجساد والمؤخرات (يمد يده إلى مؤخرة روسا فيضحكون ويصفقون). ممنوع العنف هنا

والسعالى والعنصرىة وادعاء القوّة والبطولات، ومن ىرىء منكم العنء
والفروسىات والبطولات الفارغة فهءا ءواز سفرى (ىءرء ءواز سفره
من ءىبه وىرفعه) لىأءهه ولىءهء إلى العراء وأنا أءمن له هناك بأنه
سىءء العنء.. سىعلمونه الأءب، سىءسون له عضلاته فى مؤءرته
وسىأكل الءراء الذى ىرىء.

فءعالى الضءك والءصفىق. نزلَ وصالء بىن المءءاصمىن
وءعلمها يعانقان بعضهما وبعءءران، ثم أشار إلى الذى رمى القنىة الءى
ءرءت أصابع فاطمة أن يعءءر لها، فءءءم منا المالمى بءىن وراح يعءءر
لفاطمة، فقال له أبى من ءلفه: قَبَل كفها یا ءمار.. مءل الرءال
المءءرمىن للسىءاء المءءرماء. ففعل الشاب مءسماً واءءسمء فاطمة
وهى ءءءم له كفها. وصىق الءمىع فىما صرء أبى بالفرقة الموسىقىة:
والآن هىا لنواصل سهءنا.. فءعالى الصءب والرقتص من ءءىء.. ثم
عاء أبى إلى فاطمة واءءصنها قائلاً: فءومءى ءبىبى.. كىف أنت؟
ءفءصر كفها الملقوفة وءالء له: لا.. بسىطة.. ءرء ءفىف. وءال
لها: ىمكنك أن ءءهبى إلى بىءك أو بىبى أو ءءى بىء سلیم إذا أردء.
ءالء: لا.. أنا بءىر وىمكنى البقاء هنا والقىام بمساءلة الءساباء على
الأقل.

- ءسناً كما ءرىءىن.. اءلسى إذا، ومى ما شعءت بالألم أو
بالرغبة بالمءاءرة ىمكنك أن ءفعلى ذلك.

ثم صفعها على مؤءرءها، وعاء لىغىب وسط الءشء ءءعالى
ضءكءه على الصءب. قلت لفاطمة:

- أىن ءسكنىن؟

- فى منءقة باراءاس، قرب المءار.

- وكىف ءءهبىن إذا كل لىلة؟

- أحياناً آخذ تكسي وإذا ما تأخرت آخذ المترو عند أول فتحه
في السادسة.

- وبيت السيد نوح؟.

- هنا قريب في الشارع المجاور.

- عموماً إذا أردت أن تذهبسي إلى بيتك أو بيته أو حتى إلى
بيتي، فأنا على استعداد لمرافقتك.

- لا.. شكراً أنا بخير.

خرجتُ من خلف دكة البار وعاودت الجلوس في مكاني أمامها.
وبعد ساعة تقريباً حين وجدت الأجرء تعود إلى طبيعتها. الرقص
يتواصل والشرب يتواصل وفاطمة تواصل عملها في الحسابات بكفها
اليمينى دون أن تغادرها ابتسامتها. دونت لها عنوان بيتي على مندبل
ورقي أخذته من علبة أمامي، وودعتها ثم غادرت باآجاد بيتي.

لم أستطع النوم إلا متأخراً. كنتُ أُدخنُ وأستعيد ما حدث وما عرفته اليوم عن أبي. إذاً فهو ما يزال يحفظ القرآن، ويُقر معترّاً بصيغة تسميات جدي لعائلتنا التي يعتبرها أسماء اختارها الله لنا. يفرض على فاطمة حفظ سورة البقرة فيما يصفع مؤخراً كلما مرت بقربه!.. وهو الذي ثار كالثور وقلب حياتنا كاملة بسبب شاب صفع مؤخرة أخي إستيرق!.. يدير هذا الجمع المتناقض من الناس وهو الذي كان طوال حياته يترك شأن إدارة عائلتنا بل وإدارة نفسه لجدي.. يطبعه بلا نقاش، بل ودون النظر إلى عينيه!.. يشرب الآن حمراً بنهم وهو الذي لم يكن ليرك صلاةً أو صياماً أو أمراً دينياً دون تنفيذه!.. يعاشر روسا وهي ليست زوجته!.. (وكيف يعاشرها بعد ما أحدثه التعذيب الكهربائي في خصيته؟!).. فمه يتدفق بأقذع الشتائم بكل اللغات.. وهو الذي لم ينطق في حياته بكلمة نابية!.. ضحكته أشد صحباً من ضحك الآخرين مجتمعين.. فيما كان إذا ضحك؛ لا يتجاوز التبسم لأن المؤمن الصالح إذا ضحك عليه ألا يقهقه!.. أفكر بأن أبي في داخله اثنين، هناك كان يخفي الذي يمارسه هنا، وهنا يخفي الذي كان يمارسه هناك.. دون أن يتخلى عن أحدهما نهائياً، وأحياناً يطعم أحدهما بالآخر.. فماذا عن طبيعة موت جدي إذا؟!..

كان حلم جدي تشييد ما يمكن تسميته بالمدينة الفاضلة أو القرية الفاضلة، على الأقل، لذا فإن حدث الاصطدام بالحكومة كان بمثابة فرصة مواتية لتنفيذ هذا الحلم، وقد نجح في ذلك إلى حد كبير في

العامين الأولين من انتقالنا. مكان نموذجي للعزلة، شبه جزيرة صغيرة يطوقها النهر من جهات ثلاث والجبل من الجهة الرابعة. جعل المسجد مركزها، أكبر وأهم وأجمل مبانيها على الرغم من كونه مجرد صالة كبيرة بمحراب، ألحق بها غرفة صغيرة وحمام، وصنع رفوف مكتبها بنفسه من أغصان أشجار الغرب والطرفة واضعاً عليها كل كتبه التي لا يزيد عددها على الخمسين، أكثرها دينية وتاريخية وأساطير شعبية.. كانت بحملها رصيد قراءتي الأولى حيث قرأتها كلها لفائض الوقت حينها.

إن عدم تأخر جدي باختيار المكان وقرار الرحيل إليه.. ربما هو التفسير الأدق لوقفاته الطويلة المتألمة من نافذة مضيف بيتنا في قرية الصُّبح على مدى أعوام.. ربما كان تفكيراً بهذا الأمر. وإصراره على قبول التسمية المهينة في بداية الأمر والوعد بتغيير التسمية بعد الثأر للكرامة، خطوة تكتيكية مقصودة، تنطوي على نيته في تحديد هدف لنا، علينا النضال من أجل تحقيقه، وربطه بالتسمية يعني تذكركنا الدائم له. وقال حينها: ليكن النبي قدوتنا، في كل شيء، فهو الذي غير اسم (يثرب) إلى (المدينة المنورة) بعد أن هاجر إليها، ليحقق هناك نواة الدولة الإسلامية التي امتدت إلى بقاع الأرض من بعده. ونحن أيضاً بعد أن نثار لكرامتنا سنسمي قريتنا هذه بالأحرار أو المطلق أو الكرامة.

حينها.. وحتى اليوم لم تكن تعجبني تلك التسميات لكونها مفرقة في عمومية تقليديتها، بل إنني كنت في داخلي أفضل عليها تسمية (القشامر)، على الأقل من ناحية جمالية لفظها الصوتي، وربما إن أبي كان لديه الرأي ذاته فقد سمى مرقصه هنا بالاسم نفسه.

في العامين الأولين من انتقالنا، لاحظنا توقد الحيوية في جسد جدي وفي ذهنه.. بل وتحسن في صحته، حيث لم يكتب، أكثر

الأحيان، بإعطاء الأوامر والخطط (الهندسية) والإشراف على العمل، وإنما يعسر عليه منع يديه من المشاركة فيه. كان يقول: ستكون هذه بلدة طيبة، دستورها القرآن ونظامها الشريعة، سنجعلها نموذجاً للفضيلة وقاعدة أرضية ينطلق منها الناس إلى الجنة السماوية. فكان يمارس فيها دور الحاكم المطلق الذي لا تفوته التفاصيل، يحمل أعوامه التي قاربت الثمانين مستنداً على عكازه الباكستاني ويطوف القرية يومياً، يعمل على عقود الزواج ويبارك المبكر منها ويقيم الحد على المخطئ ويصلح بين المتخاصمين. يزور المرضى ويقراً على مواضع أوجاعهم رقياً ونصوصاً قرآنية. ينهر النساء الكاشفات عن سيقانهن أمام طشوت الغسيل ويحاسب التي تثقل منهن بالحمل على حمارها ويقدم النصائح ويعلم الصغار والكبار شؤون دينهم وديناهم.. يتدخل في كل شيء ويهيمن على كل شيء.. حريصاً على تطبيق ما كان يسميها (حدود الله) بحذافيرها.

جعل من صلاة المسجد المجاورة لبيتنا مسكناً له، ومقرراً لإدارة كل الشؤون، هناك الصلاة واللقاء والاحتفالات الدينية، وهناك مجلس القضاء والسمر والنجوى والتعبد، وهناك المدرسة التي تعلمنا فيها جميعاً، وهناك الكتب وعلب حلوى وكيس تمر وسم للفئران وسيف موروث..

اخترنا أكثرنا سُمرَةً وقوة كمؤذن.. اقتداءً باختيار الرسول لبلال الحبشي. ولأنه لم يشأ تغيير اسمه، أمره بتسمية ابنه بلال، وكان يناديه بـ (أبو بلال) حتى قبل أن يأتيه من أطلق عليه هذا الاسم فعلاً. وأمر ببناء درج يرتقيه إلى السطح ليطلق آذانه من هناك، فكنا نصحو فجراً على صوته الذي صار أجمل مع مرور الوقت وتعليمات جدي، كما كنا نقيس الوقت وفقاً لمناداته الخمس إلى الصلاة. فيما خصص آذان

صلاة الجمعة لأبسي، ربما بقصد إجباره على المحي، من عمله في كركوك نهاية كل أسبوع، وقد كان أبسي هو الوحيد الذي يغادر القرية، ليصبح، على هذا النحو، صلة الربط الوحيدة بالعالم الخارجي، ولشدة طاعة أبسي لجدي.. فكنتُ على يقين من أنه سيترك العمل الذي يحبه لو أن جدي قد طلب منه ذلك.

اشترط جدي عليه أن يكون دربه عبر الجبل وليس عبر قرية الصُبح، حيث اتخذ أبسي لنفسه درباً صنعته الماشية لعبور الجبل إلى الضفة الأخرى والوصول إلى الطريق العام الذي يربط الموصل ببغداد، ومن هناك يُوقف السيارات الداخلة باتجاه الموصل ومنها إلى كركوك. كان، أحياناً، يذهب ماشياً لأكثر من ساعة لعبور الجبل، وفي أخرى يرافقه أحدنا على حمار حتى هناك، فكنتُ أنا أكثر من يفضل القيام بهذه المهمة لأن أبسي يتحدثني عن العالم الخارجي خلال الطريق وعن الألمان الذين يحبهم. يقول عنهم: يعجبهم كثيراً أكل الحلوى ولديهم منها شتى الأنواع، سأجلب لك في المرة القادمة قطعة شكولاته.. إنهم مثل عائلتنا المهووسة بالتمر لكن حلواهم لا تُحصى بألوانها وطعمها. ومن ذلك، أيضاً، أذكر حديثه ذات مرة عن الألمان، فاسترسل كأنه وحده.. أم تراه قد قصد الإيحاء لي بالصدقة، ومعاملتي كرجل حينها؟! الشُعر كحقل القمح في موسم الحصاد.. زغب نُودهن وعناقن حفنة عشب ذهبية.. لكن الرائحة؟!.. المؤخرات هي الأقل جمالاً فيهن لأنها ليست كروية تماماً وإنما بمثابة امتداد للظهر والفخذين.. مؤخرات بلا هوية! لو وضعن الكحل الأسود وسط وجوههن الذهبية دائرياً على عيني خضراوين.. شيء مذهل الجمال.. مذهل!.. أنداء عامرة رجراجة، وجوه وأجساد كالزبدة.. ولكن كأنها بلا ملح.. فهل لأن الزبدة توكل مع السكر لا مع الملح؟. كثرة

البدينات.. ضخمة الجثث.. طويلات تصل قامات بعضهن بارتفاع تلك الشجرة.. تلك.. هل تراها؟.. نعم.. صدقني.. هن أقل ثرثرة من غيرهن ممن عرفت من الأجنيات. باردات بعض الشيء.. أفلهذا يجيب الشمس؟.. وفي الشمس يصبح حمراوات كالطماطم.

يحدثني عن أجنب آخرين كنت أتخيلهم عشائر مثلنا، فرنسيين وتايلنديين وأمريكان وهنود.. وإنكليز يقول عنهم: لا أحبهم لأن ابتساماتهم صفراء. فأتساءل لحظتها في نفسي عن سر بغضه للإنكليز لأن ابتساماتهم صفراء مقابل حبه للألمان الذين لهم شعر أصفر..!، لكنني سرعان ما أتجاهل تساؤلي لعدم فهمي لمعنى كون الابتسامة صفراء، ولكي لا أقطع استرساله المتوهج في حديثه عن الألمان: هناك في بلاد الألمان، يا سليم، تتوفر اشتراطات الاشتهاء العربي، يعني: الماء والخضرة والوجه الحسن. ألمانيا كلها عبارة عن حقل أخضر.. هل تفهمني؟.. ربما هم جادون حد الجفاف واليباس في التعامل.. كأنهم يعيشون للعمل وحسب.. إنهم عنيدون، مثل جدك، ولهذا يلين لهم الحديد فيصنعون به أفضل السيارات.. نأجحون في الحديد والموسيقى.. يشدهم التحدي لهذا بنوا بلدهم بعد الحرب بسرعة وتفوقوا على عدوهم في البناء.. هناك لديهم الحرية. كل إنسان يقول ما يريد ويفعل ما يريد دون أن يتدخل في اختياراته أحد.. الحرية يا سليم.. أه.. الحرية.. هل تفهمني يا سليم؟؟. أقول: نعم يا أباي. على الرغم من أنني كنت أتخيل ما يقوله على طريقي أكثر مما كنت أفهم ما يعنيه. كان الأمر بالنسبة لي صورا مدهشة كالصور التي حفرها في مخيالنا جدي عن الجنة. أطمع أوصاف جدي بأوصاف أباي حد التطابق أحيانا والفرق هو أن الذي يصفه أباي موجود في الأرض أما الذي يصفه جدي فوجوده في السماء.

في أثناء صعود الحمار للجبل يضعني أبي أمامه كي لا يميل جسده الضخم على جسدي الصغير، وعند النزول يُردفني خلفه كي أستاذ على ظهره. وكانت لحظات تطويق ذراعي لجسده واحتضانه هي أحب اللحظات إلى نفسي.. حيث الإحساس بقربي لأبي واتحادي به. كنت أشعر بخنان لذيد وثقة ودفء لأنها أشد حالات التصافي به، أشعر بحب كبير له وبجبه لي.. وكأنه هو الذي يحتضني وليس العكس. عند الوصول إلى الشارع العام، ينزل هو ويأخذ حقييته من الخرج ثم يقول: كما تعرف؛ إن رضا الله من رضا الوالدين وأنا راض عنك يا سليم مهما تفعل، ولكن عليك أن تحرص على إرضاء جدك وأمك أيضاً.. أو كي؟.. فأهز رأسي بالموافقة وأتمتم: أبي لا تنس.. فيقاطعني مبتسماً: نعم أعرف.. سأجلب لك مجلات ألمانية ملونة.. لا تهم. يلف ذراعه حولي محتضناً دون أن يُنزلني عن الحمار ويقبلني. وهي المرات الوحيدة التي يقبلني فيها، فلم يفعل ذلك بحضور أحد على الإطلاق، لأن جدي يرفض التربية المانعة للرجال.

- اذهب الآن.. مع السلامة يا سليم.

أسحبُ حبل الحمار مستديراً: مع السلامة يا أبي. وأظل أتلفت إليه وأنا أبتعد حتى أراه وقد صعد إلى إحدى السيارات، وحين أكون على مسافة نرى فيها بعضنا يلوح لي من نافذة السيارة بكفه وألوح له.. وأظل ناظراً إلى السيارة وهي تبتعد إلى أن تصبح نقطة صغيرة تتحرك على الخط الأسود للشارع وتغيب.. بعدها أوصل درب عودتي مفكراً به وبالمجلات الملونة الألمانية التي سيحلبها لي وأقص من صورها، ألصقتها في دفثري وأريها لعالية واعدأ إياها بحلم شبيه بالصور. .. كأن علاقتي بأبي كانت علاقة عاطفة وروح فيما علاقتي بجدي علاقة عقل ونُظم. فلم أكن مختلفاً عن غيري من أبناء قرية

القشامر من حيث شعورنا والتزامنا الكلي بالمنظومة التي خلقها لنا جدي وربطنا بها، وخاصة أنها كانت مريحة وناجحة ومتطورة في العامين الأولين، حينما ساد الرضا والانسجام والتوافق حياة الجميع. وكانت ذروة احتفالتنا هي صلاة الجمعة حين يجتمع جميعاً كباراً وصغاراً، الذكور يشكلون الصفوف الأمامية و صفوف النساء خلفهم. نلبس أفضل ثيابنا ونتعطر. وفي الربيع نفرش سجاداتنا على الحصى والرمل خارج المسجد ويقف جدي مرتفعاً أمامنا على دكة الدَّرَج الخارجسي، بخطب بنا فنشعر بتوحدنا الكامل وتآخينا ونقاء أرواحنا وقربنا من السماء والله. حيث تهدر تكبيراتنا عند الصلاة ويدوي نطقنا المشترك لكلمة (آمين) مُتحداً مع أصوات أمواج النهر وحفيف الأشجار، وصداهها البعيد على سفح الجبل بمنح المناخ رهبة أسطورية شبيهة بتصورنا عن يوم القيامة.

كانت تلك أشد لحظاتنا توحداً وسلاماً وطهرانية روحية.. نشعر بأن لنا روحاً واحدة. أما على صُعد الذهنية والمفاهيم فقد كنا نشعر بتوافق تام وكأن لنا عقلاً واحداً مشتركاً نفكر به أو يفكر لنا.. ألا وهو جدي.. الذي كان حتماً سيحقق حلمه بالقرية الفاضلة لولا أن فاجأنا ذات صباح هدير الجرافات في أعلى الجبل وهي تشق على مسار درب أبي الصغير شارعاً عريضاً نحو قرينتنا جاءتنا عبره الحكومة بمسؤوليها وأعمدة الكهرباء وأهدتنا التلفزيونات و بنت لنا مدرسة من الإسمنت.. وباءت كل محاولات جدي لصدها بالفشل، لذا صار أكثر حزناً وغضباً وهزلاً.

لقد اشتدت الحرب على الجبهة مع إيران لذا كانت الحكومة تبحث عن المزيد من الشباب والرجال في كل زوايا العراق لتجنيدهم. كانت صحة جدي تزداد انهياراً كلما رأى تزايد انهيار حلمه، وتقياً دماً

حين عرف بأن الحكومة قد سجلت قريتنا في أوراقها الرسمية باسم قرية (الفارس) قاصدة بذلك الدكتاتور، لذا أعاد جدي في خطب الجمع اللاحقة تأكيداً لنا على التمسك بتسمية القشامر حتى يوم الثأر للكرامة.. يوم يُبدل لها اسمها المنتظر بقرية (الأحرار) مثلاً.

اتسعت الجبهة على جدي ومع ذلك لم يكف عن محاربه لما فيها، ووسيلته الأقوى خطب صلاة الجمعة: التلفزيون هو الشيطان في بيوتكم وسيفسد عليكم نساتكم، إنه (الأعور الدجال) ولهذا فهو بعين واحدة. مدرسة الحكومة تعلم أبناءكم الكفر والابتعاد عن الله. الشرطة كلاب الظالم. الحرب على إيران المسلمة عدوان لا يقبله الله. هذا زمن صعب يكون فيه التمسك بدينه كالقابض على جمرة من نار، فاصبروا واقبضوا على دينكم مهما تكويكم جمرة زمانكم، فهي أهون من أن تدخلوا نار جهنم في الآخرة وتخلدوا في الجحيم. لكن خوف الناس من بطش الحكومة كان أكبر من خوفهم من تهديدات جدي الموجلة حتى العالم الآخر.. فراحت خيوط السيطرة تنسل من بين أصابع جدي على الرغم أن الناس ظلوا في القرية يظهرون له التبجيل والطاعة.

لقد تمكنت الحكومة من إحصائنا مجدداً بعد أن جاءت بشرطة يفوقوننا عدداً وتسليحاً، واستخرجت لنا بطاقات جديدة حاذفة منها لقب القشامر وكذلك لقبنا القدم تاركة إيانا على أوراقها مجرد أسماء حيادية بلا ألقاب. وبعد أن حددت عدد الشباب والرجال المؤهلين للعسكرة أمرتهم بالذهاب إلى الجيش، لكنهم امتنعوا بعد خطبة تائرة لجدي، لذا قررت المداهمة ليلاً للقبض عليهم واحداً واحداً، فأعدهم الشيخ ملا مطلق للمقاومة، ووزعهم مسلحين بالبنادق والمسدسات والفالات والفوسس والمراوات والسكاكين على أسطح البيوت وفي خنادق بينها ووسط الأدغال وخلف صخور أسفل السفوح.

في تلك الليلة، التي كانت ستتحلي عن خراب ومجزرة حقيقية، كان لأبسي الفضل في إنقاذ القرية حين تمكن من قطع الكهرباء من المحولة الرئيسية القائمة في وسط القرية، مما جعل الحكومة تراجع عن المهاجمة الليلية للقرية، وجاءت ثماراً إلى البيوت واحداً واحداً. اضطر الرجال بعدها للذهاب مع الشرطة طوعاً كي لا يُهانوا على مرأى من نسائهم وأطفالهم. وما كان لجدي من حيلة أخرى غير مواصلة الشد من تصبير الناس بوعود الفرج القريب.. ومقابل ذلك راح يكشف من دروسه للصفار في المسجد، منافساً ومصححاً ما تقوم بتعليمهم إياه مدرسة الحكومة. حتى جاءت الضربة القاصمة لظهره وروحه؛ يوم نزل، قبيل الغروب، رتل سيارات حكومية كمنل أحمر زاحفاً على التواءات الشارع الأسود، وتوقفت وسط القرية مُنزلة سبعة عشر تابوتاً ملفوفة بالأعلام فيها جثث شباب القرية الذين قُتلوا في الهجوم الأخير على الجبهة، وكان بينهم أحمد وفندي وصالح وناصر وقيس وحسن وجمال ومحمود ومضحى وخير الله وعبدالله وصراط، حبيب أختي إستيرق، وأخي حكيم. أنزلوها وغادروا صاعدين برتل سياراتهم على سفح الجبل وغابوا تاركين لقرينتنا أشد لياليها سواداً مفجوعة بالعويل المر.. مزقت النساء الأعلام لأنهن كن بحاجة لتمزيق أي شيء، وخاصة بعد منع جدي لهن من شق الثياب جزعاً على الأموات.

تحولت ساحة القرية إلى بقعة من الجحيم البكائي حول التوايب. وجلس جدي على كرسيه صامتاً يكظم بكاءه حتى منتصف الليل حين هد الحزن سدود تصيره فانفجر بالبكاء وسقط مغشياً عليه.. فحملناه إلى فراشه في زاوية المسجد.. وهناك، بعد أن رششنا على وجهه الماء البارد وفتحنا رأس بصل أمام منخريه، صحا قليلاً وأمر المتحلقين حوله

من الرجال بعدم دفن الجثث إلا بعد الثأر لها هذه المرة.. وغفا غائباً في غيبوته الأخيرة.

على مدى أسبوع كامل راحت معه الجثث تتعفن وتنتشر رائحتها في كل مكان.. على الرغم من محاولات النساء في رش العطر وتكويم باقات الزهور على التوابيت، والرجال يعاودون جدي المسجى، يكررون عليه طلب السماح لهم بدفن الجثث، دون أن يجرؤ أحدهم على تذكره بأن الإسلام مع الإسراع في دفن الميت، فهو أعرف منهم، لكنه كان يرفض بجز رأسه دون أن يفتح عينيه.

قربتنا لم تعد تطاق برائحها وبكآبة أهلها، تحولت إلى كابوس حائق، قل الكلام بين الناس وساد الصمت إلا من نحيب النساء، كف الأطفال عن اللعب واكتفوا بتمضية الوقت الفائض بالتحوال التائه والتحديث. أبي لم يذهب إلى عمله وظل إلى جوار جدي يوضئه عند كل صلاة ويوجه وجهه إلى مكة فيراه يصلي بعينه من خلال رؤيته لتحرك جفنيه المطبقين وتحريك الشفاه. حينها قررت أنا المغادرة بعد أن أمضيت الأيام الأخيرة بالتحوال بين زيارة قبر عالية وعُشنا والشاطئ الذي غرقت فيه.

لم أستطع النوم في ليلة القرار الأخيرة، فكنت أتقلب في فراشي وأتمض عنه، أحول حول البيت ثم أعود إليه.. حتى بدأ الفجر يتعلمل في ولادته، فحسنت الأمر بأن أخبر أبي وأغادر. توجهت صوب صالة الجامع لأنه ينام هناك إلى جوار جدي، وما إن مررت قرب النافذة حتى سمعت صوته يجادل حانقاً. توقفت، ونظرت من النافذة فلم أر شيئاً يحكم الظلام، لكنني بقيت متسماً في مكاني وأنا أقشعر لسماع صوت أبي بهذه النبرة الغريبة لأول مرة في حياتي.. كان صوته قوياً واثقاً وفيه تفجر احتباس ومعاناة مريرة.. يتوجه بما إلى جدي الذي لم أسمع له إجابة..

أبى يصرخ بوجه جدى حتماً، إذا ما كان أمام وجهه في هذه الظلمة، ومن بين ما تنهى إلى سمعي قوله وسط اختناقاته بالبكاء والغضب: أبى أوقف صعودك وتعاليك وخفف قليلاً من ثقل كرامتك، إنك لن تحرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً. لن تُصلح العالم وحدك، لن يكون العالم كما تريد ولا كما يريد أي أحد، كف عن تعاليك على ضعفنا فنحن بشر وجثنا تعفن. ارحم ضعفنا وواقعتنا وأخطائنا.. أبى، بالنسبة لي، أنت إله أو ممثل الرب في الأرض أمامي.. لكنني بشر محكوم بمحدودي، والبشر يتمردون على آلهتهم في لحظات ضعف أو في لحظات قوة.. أبى إنني أحتق بقيودك وأضيق ذرعاً بأوامرك ونواهيك. إن روعي تقوى بالتزامها بك لكنها تنوق للتنفس بعيداً عن رقابتك.. أبى إنني أحبك بشكل يفوق محبتي لنفسي أحياناً، لكنني في أحيان أخرى أتمنى عدم وجودك.. أبى أهدتك في الظلام لأنني لا أستطيع رؤيتك. لم أنظر إلى عينيك في حياتي ومع ذلك فهما أشد حضوراً من عيني ذاتهما. أرى بعينيك أنت اللتين لم أرهما فيما عيناى تتوقان لممارسة وجودهما قبل التعفن.. جثنا تعفن يا أبى فارحم ضعفنا.. إنك تقودنا إلى الهلاك..

بدأ الفجر يتنفس وصرت أرى أبى منحنيّاً على جسد جدى وجهاً لوجه وكفاه على صدره أو على جانبيه.. وجدت نفسي أرتعش بفعل ما سمعت وما رأيت، لذا سارعت بالمغادرة عائداً إلى فراشي.. أرتجف، وكنت أشك في كوني نائماً أو يقطاً، مبللاً بالعرق وحلقي جاف. تكورت كالجنين تحت اللحاف ورحت أفتح عيني وأغلقهما في الظلام مستمعاً إلى قرع دقات قلبي وتسارع تنفسي.. حتى سمعت صراخ أمي: يا ويلي الملا مات. وأبى ينادي لأذان الفجر من على سطح المسجد.

هضتُ ووضعتُ في حقيبي من أشيائي ما استطعت، ثم سارعت بالتسلل إلى سرير إستيرق، المريضة حزناً على فقدانها لصراط، في الغرفة المجاورة وهمست لها: إستيرق حبيبي، لم أعد أحتمل البقاء هنا، سأغادر القرية، سأغادر البلد كله، سأهجر كل شيء هنا ولا أدري إلى أين سأذهب ولا كيف.. سأذهب إلى أي مكان آخر ولا أدري متى سأعود.. لكن الذي أعرفه هو أنني لم أعد أحتمل البقاء هنا لحظة واحدة.. إنني أحتنق.. إنني أحتنق حد الموت.

استيقظتُ على قرع جرس الباب الخارجي، ونظرت إلى ساعة المنبه جوار رأسي فوجدتها السادسة إلا عشر دقائق صباحاً. نهضت متوجهاً إلى سماعة هاتف الباب، وسألت: نعم.. مَنْ؟.

جاءني الصوت: - أنا فاطمة.. آسفة لإزعاجك ولكنني أريد التحدث معك.. ضروري.

- هاه.. فاطمة.. اصعدي.. اصعدي أنا في الطابق الرابع، تفضلي.

تسركتُ الباب مفتوحاً وسمعت خطواتها تصعد أولى درجات السلم، فيما سارعت إلى الحمام، غسلت وجهي، ثمضمت ورتبت شعري على عجل، ثم سارعت بتنظيف سطح طاولة الصلاة التي كانت مكتظة بمنفضة السحائر المليئة بالأعقاب ونوى التمر وعلب اللبن الفارغة والصحف المبعثرة. بعدها، ذهبت إلى الباب واقفاً بانتظارها حيث اقترب وقع خطواتها من الوصول. كانت تلهث بسبب الصعود وكررت عليها جملة المجاملة الروتينية لكل اللاهثين بالصعود إلى شقتي، والتي تعلمتها من بيلار: هذه رياضة.. يقال إن صعود السلام يقوي عضلة القلب.

مددتُ لها يدي مصافحاً ومعيناً لها على صعود آخر درجتين، فابتسمت وهي تقول:

- صباح الخير.. ثم أضافت: وماذا سأفعل بقلب قوي العضلات ما دام ليس لدي نية إرساله للمشاركة في الأولمبياد!.

ضحكنا معاً وقدتما إلى الدخول. كانت آثار التعب والسهر واضحة عليها. شعيرات الدم الحمراء خضبت بياض عينيها، ولاحظتُ أن شعرها طويل وجميل والتصيف. بشرة وجهها متعبّة ولامعة كأنها مدهونة بالزيت. رأيت ذلك حين مرت من تحت المصباح المعلق في الممر. وقدتما للجلوس في الصالة، فألقت نفسها ارمئاً وأطلقت زفرة قوية، أو كما يقال؛ تنفس الصُعداء. ومثل كل الذين دخلوا إلى بيتي، أيضاً، راحت تحديق بصور العراق التي تغطي الجدران، وقالت: هذه أول مرة أرى فيها بيتاً بهذا الشكل.. أهى صور من العراق؟.

قلت: نعم ألقفها بنية التخفيف من غربتي لكنها في الحقيقة تريدها.

قالت إنها فكرة جميلة وفي وقت لاحق ترغب في أن تتفحصها صورة صورة لأتأ تحب العراق ولا تعرف عنه الكثير. كانت ترندي فستاناً بسيطاً مما جعلها أكثر أنوثة في نظري، أنا الذي لم أر في سنواتي الطويلة هنا إلا نساء قليلات لا يرتدين البنطلون. وسألتها إن كانت تريد أن تأكل أو تشرب شيئاً، فقالت: لا شيء سوى قليل من الماء. جلبتُ لها كأساً وجلست قبالتها سائلاً إياها عن جرح كفها، فقالت: لا بد أنه أحسن، ولكنه مازال يخزني، أحتاج إلى تغيير لفافته، هل لديك..؟. قلت: نعم، لدي يود ولفاف. ونهضتُ. فقالت: لا.. ليس الآن.. اجلس، جئت لأخبرك بما حدث وبضرورة أن تتحدث مع السيد نوح، أعتقد أنه الآن بحاجة إلى قريب يفهمه ويساعده.

- ماذا حدث؟.

- قبل ساعة، وفي نهاية السهرة، تخاصم وروسا، وذهبت هي غاضبة باكية إلى برشلونة.

- لماذا؟.

- لقد شرب السيد نوح في الأمس أكثر من اللازم حتى سكر، فزاد في مزاحه مع الزبائن والرقص مع الفتيات ومداعبتهن، وقبل بعضهن أحياناً، فكانت روسا تمزق غيرة وتكبح غضبها حتى انتهاء السهرة ثم بدأت المعركة بينهما.. وكانت إجاباته فظة، فحملت حقيبتها وغادرت باكية تاركة إياه مترنحاً في سُكره. حاولت تهدئتها ولم أستطع، ثم قدتُ، مع إحدى زميلاتي، السيد نوح إلى بيته وتركناه هامداً على فراشه كحثة. نام بملابسه كما هو، وخلعتُ له حذائه ثم أغلقتُ المحل على فوضاه واتساخه وجئت إليك.

- وهل يحدث هذا دائماً؟.

- لا ليس بهذا الشكل.. فهو يشرب لكنه لا يفقد وعيه وسيطرته على نفسه.. بالأمس شرب كثيراً فسُكر بشكل لم يحدث من قبل.. لا أعرف ماذا أفعل.. لذا فكرت بشخص آخر يعينني على الأمر، وعلى الرغم من أن السيد نوح له معارف كثير، إلا أنني لاحظتُ بأنه هو وروسا يكتنان لك احتراماً ومودة خاصتين، ثم إنك من قريته وبلده وثقافته ولغته، لذا فكرت بأنك ستكون أفضل من يتحدث معه ويسمعه ويفهمه.. إنه صديقك على أية حال.. أليس كذلك؟.

أطرفتُ رأسي للحظات مفكراً بالأمر وبقرار الإجابة، تنفستُ بصوت مسموع، ثم نظرت إليها وقلت:

- إنه أبي.

الدهشة المفاجأة، ألقى بفاطمة مسندة ظهرها إلى الخلف، أوسعت عينيها، وتغيرت كل ملامح وجهها، فقُرت فاهما الذي سارعتُ إلى تغطيته بكفها اليميني: صحيح؟!

أكدتُ لها الأمر دون تفاصيل أخرى، وقلت لها أن عليها أن تستريح، تنام، وكذلك لندعه هو الآخر ينام وبعد ساعات سندهب

إليه. قالت إن جسدها منهك لكن ذهنها يقظ ولا تدري إن كان باستطاعتها أن تنام، لكنها بحاجة إلى الاغتسال وتبديل لفافة جرحها ثم الاتصال بشقيقتها لتطمئنها وإخبارها بعدم مجيئها اليوم إلى البيت. فقلت لها: نامي الآن قليلاً وبعدها سنرتب كل شيء. قالت: نصف ساعة ستكون كافية. قدما إلى سريري في غرفة النوم وأخرجتُ لها إحدى بيجاماتي، لكنها أصرت أن تنام، هكذا، بثوبها.

أغلقتُ عليها الباب ونزلتُ أجلب خبزاً وجبناً وحليباً، ثم رحتُ أعد الإفطار لكليتنا. جعلته هذه المرة أكثر ثراءً وتنوعاً مضيفاً إليه البيض والزيتون والمرى فليس من اللائق أن أقدم لها إفطاري اليومي التقليدي: قهوة بالحليب وبسكويت وسجائر. نامت أكثر من ساعة وكنتُ أسمع شخيرها الواطئ كشخير طفل بدين هذه اللعب أو يخنقه مخاطه.

فرشتُ على طاولة الصلاة الواطئة صفحات جرائد، كعادتي، ورحتُ أجلب الصحون أرتبها، ثم أعددتُ ماكينة القهوة، شغلتها، ودخلتُ إلى الحمام أغتسل.. لأجد، بعد انتهائي وخروجي، فاطمة جالسة في الصلاة. حبيتها وكفاي مازالتا تديران المنشفة على رأسي.

- صباح الخير.. هل نمت جيداً؟.

قالت نعم، ثم أضأفت متبسمة بمخجل أنثوي: هل أزعجتك بشخيري؟!.. فأنا أشخر حين أكون متعبه.

- لا.. شخيرك بسيط جداً مقارنة بشخيري أنا المدخن.. فهو يشبه زئير تراكتور غائص في الطين.

ضحكت، وأشرتُ لها بالدخول إلى الحمام، فيما دخلتُ أنا إلى غرفة النوم أستبدل ملابسني، ولاحظتُ بأنها قد رتبت فراشي بشكل أنسيق لم أقم به أنا مطلقاً من قبل. فشعرت أن أحدنا (أنا والفراش)

يتمسم غامزاً للآخر بمغزى. أخرجت من أحد أدراج الدولاب ما لدي من لفائف طيبة ويود. حملتهما إلى الصلاة ورحت أجلب القهوة، ووضعت في المسجل شريطاً لفيروز التي أدمنتُ، كغيري، سماعها في كل صباح، وجلست أدخن منتظراً خروج فاطمة.

انفتح باب الحمام وأطلت برأسها ونصف كتف عار من خلف إطاره، شعرها يتدلى يقطر مبللاً، أرعشني مشهده الذي ذكرني بعالية السابحة أو الفريقة، وقبل أن يستغرقني هذا المشهد قالت من فم سعيد: - الله كم أحب فيروز!.. ثم سألت: هل لديك منشفة ثانية أم أنشفت هذه؟.

لمضت قافراً: عفواً.. نسيت، طبعاً عندي. وجلبت لها على عجل منشفة أخرى، تلقيتها ذراعها العارية فاتحة برائحة المرأة والصابون. شكراً. وابتسامة. وأغلقت الباب. رفعتُ من صوت فيروز، وجلست أدخن سيجارة أخرى بانتظارها وقلبي يزداد طراوة كربدة تذوب وسط صحن زيت دافئ.

أكملنا إفطارنا بعد أن سألتها خلاله: لم تتذوقني التمر؟. قالت: أنا لا أحبه إلا في شهر رمضان. أشعري ذلك بنوع من الخيبة، وقلت: جريبه: إنه تمر عراقي. قالت: صحيح؟! وتناولت واحدة على الفور. أنهت فيروز شريط أغنياتها، فيما رائحة جسد فاطمة المترجة بأريج الصابون تملأ المكان، وهي تقول ليدي: شكراً لا أدخن. رحت أسألها عن نفسها فوجدتها تسرد لي بثقة تحت تأثير استرخائها وشعورها بالراحة، فتتجلى لي حكايتها وشخصيتها تدريجياً مع تدرج زحف نور الصباح.

فاطمة من طنجة، تصغري بأربعة أعوام، ومنذ أربعة أعوام تقيم في مدريد، لها أربعة أخوة (وتحب الرقم أربعة، إذا كان لهذا الأمر

أهمية!). أختاها الكبيرتان متزوجتان، وهي والصغرى هنا، أما شقيقتهم الوحيد فقد غرق في مضيق جبل طارق أثناء مغامرة العبور إلى إسبانيا في قوارب الموت. لقد ترك دراسته الجامعية قبل أن يكملها مضطراً، بعد أن تم طرد الأب من عمله في مطعم دام أكثر من ثلاثين عاماً، حين توفي صاحب المطعم وحوّله أبناؤه إلى ملهى، استبدلوا معه كل طاقم العمال بشباب ومنحوا والدها قليلاً من المال واستغنوا عن خدماته فقد شاخ ودبت في بدنه الأمراض. حاول الأخ سد تكاليف عيش الأسرة وعلاج الأب عبر أعمال شتى كانت تُرهقه ولا تُفي، لذا قرر المغامرة التي غرق فيها. كان يحدثهم عن أوروبا الحلم والمال الوفير الذي سيبيعه لهم. تركت فاطمة دراستها أيضاً أمام حسرة والديها وأمراض الأب. تنقلت هي الأخرى عاملة بين مصانع للأحذية، وللنسيج وورشة خياطة، ومع ذلك كانوا يضطرون للمبيت بلا عشاء في أغلب الليالي. لذا لم تتأخر بالموافقة على الزواج من مغربي في زلفتهم حين طلب يدها في إحدى زيارته لأهله قادماً من إقامته الطويلة في إسبانيا، فجاءت إلى هنا حاملة حلم أخيها الذي لم يتحقق. لكنها بعد شهرين ونصف، اكتشفت إدمان زوجها على الشرب وتسكعه. كان يضرهما، ويصرف مالها الذي تجنيه من تنظيف بيوت الأغنياء، فانفصلت عنه، ثم جاء الطلاق. وراحت تبحث لأهلها ما توفره من مال ثم جلبت أختها الصغرى كي تؤانسها وكي تكمل حلم العائلة بأن يكمل أحدهم دراسته.

كنتُ أشعر في عمق نرتها مسحة من ثبوت الثقة بالنفس وغلالة من الحزن الذي استطاعت فاطمة تقبله وهضمه بواقعية تركز على اتفاقها مع تكرار حكايتها وعاديتها، وتصل في ذلك إلى حد الرضى المتفهم.. بل وتحويله، عبر الاستحضر أثناء ممارسة الحياة، إلى نوع من

مصدر لاستمداد التَّقْوِي ومن ثم الوصول إلى نوع من الشعور بالاعتزاز بالذات. ثمّة شيء ما، أجهله، في فاطمة المغربية يذكرني، أحياناً، بكولاله الكردية!

ولا أدري كيف قادنا الحديث مرة أخرى إلى أبي فوجدتني أجد مدخلاً مناسباً لأسألها عن معنى تقبلها لمداعباته، وتحديدًا، لصفعه لها على مؤخرتها..!، فقد كان هذا الأمر يعينني إلى حد عميق. فوجدتها، تضحك، ترنوا بعينها بعدوبة كمن يتذكر حادث عزيز، وراحت تحاول شرح شعورها لي تجاه أبي الذي تجد فيه أبوة تحتاجها.. وتبحث فيه عن صور من والدها؛ شرطه عليها في حفظ آيات قرآنية، أوامره لها في العمل، ثقته الخاصة بها وتسليمها صندوق الحسابات، إعطائه لها نسخ من مفاتيح المرقص وبيته، حاجته إليها في الترجمة، فهمها لبعضهما باعتبارهما من ثقافة واحدة وسط أناس من شتى الثقافات، استعانتها بما على فهم الكثير من محيطه الجديد، سؤاله لها عن أختها ووالديها ومكافأته لها بشكل متكرر.. والصفعة يا فاطمة؟!.. أسألك عن صفعه المتكرر لمؤخرتك؟!.. آه.. حتى هذا يلذ لها، فذاك ما كان يفعله أبوها أيضاً حين كانت تأتي إليه صغيرة تُريه رسومها أو تحمل شهاداتي باحها في المدرسة، يرفعها إلى ركبتيه، يحتضنها إلى صدره، يُقبلها، يمنحها بعض الدراهم لتشتري ما تشاء، ثم ينزلها بين ركبتيه ويصفعها بخنان على مؤخرتها قائلاً: أركضي إلى أمك، في المطبخ، وبشرها بنجاحك.

مثلما يحدث كثيراً، مع كثيرين، أن يتحسنا تالفاً حميمياً بعد لقاء أو اثنين، فيشعران وكأنهما يعرفان بعضهما منذ وقت طويل، حدث ذلك بيني وبين فاطمة، وقد أشرنا إليه في حديثنا أثناء مسيرنا القصير باتجاه المرقص. وبالنسبة لي، فهذه هي المرة الأولى التي أشعر فيها

بتخفف من عبء الإحساس بالغرابة، وكان لاستعمالي العربية بالحديث أثر كبير في ذلك. فاطمة أقرب إلى الأثنى التي أتصور أو التي تربيت على فهمها، ففيها شيء من الأخت والأمومة وتقبل الدور الممنوح أو المتاح في الحياة، في المحيط، في الزمان والمكان المعينين وأطر من مفاهيم تقليدية توحى بالوثوق والطمأنينة وقبول الأمر الواقع، ثم حساسية التكيف دون الكف عن هاجس التنظيم والتحسين. استعملنا في كلامنا، بداهة، الكثير من الكلمات الدينية، يشعرونا بثقة أكبر وتقارب أكثر. فهي حين رأت سجادة صلاتي معلقة خلف باب الصلاة، في البقعة الوحيدة الخالية من الصور، قبل أن نخرج، سألت وهي حتماً تعرف الإجابة: أأنتَ تصلي؟ قلت: نعم. فقالت: أنا كذلك قدر استطاعتي، والترامي كامل فقط في شهر رمضان.. أنا أفضل الأشخاص المؤمنين بوجود الله.

وصلنا، أخرجت حزمة مفاتيح من حقيبتها، فتحت باب المرقص واندفعنا نازلين إلى داخله بعد أن أضاءت بعض أنواره الخافتة من زر صغير خلف صفحة الباب. ما إن نزلنا آخر درجة حتى أضاءت فاطمة الصلاة بالضغط على زر قرب مدخل الحمام فاشتعلت المصابيح الكبيرة كاشفة عن فوضى شبيهة بميدان معركة حقيقية منتهية لتوها. الأرضية مغطاة بالمناديل الورقية، أعقاب سجائر، ومخلفات السهرة، كراسي ساقطة، أفداح وقناني فارغة أو إلى منتصفها في كل الزوايا والاتجاهات، أعقاب سجائر، قشور ليمون وعظام حبات الزيتون، أعقاب سجائر، صحون ومنافض مليئة بأعقاب سجائر وعيدان تنظيف الأسنان، علب سجائر فارغة وبقايا سندويشات قُضمت إلى المنتصف، فتيت بطاطا، أعقاب سجائر وعطن النيكوتين يهيمن على المكان.. فقلت ذاهلاً: ما هذه المزبلة؟!.

قالت فاطمة: هذا شيء عادي تخلفه كل سهرة.

- وما العمل؟.

ابتسمت وهي تشر عن ساعديها وتربط صدرية العمل على صدرها قائلة: سأقوم بتنظيفه الآن.

- ولكن هذا كثير عليكٍ وحدك.. ثم أن كفكٍ مجروحة!

- هذه جراح بسيطة.. وسوف ترى كيف أعيد المكان إلى نظافته ونظامه خلال ساعة واحدة.

- هل أساعدك؟.

- لا.. فهذا عملي أنا وأعرف كيف سأبجزه.. اذهب أنت إلى السيد نوح.

- كم الساعة الآن؟.

- العاشرة والنصف.

وتوجهت إلى حقيبتها، أخرجت منها حزمة المفاتيح، مرة أخرى، وراحت تميزها لي عن بعضها.

- هذا مفتاح باب العمارة الخارجي، هي هنا التي في الزاوية على اليسار، وهذا مفتاح الشقة، في الطابق الثاني، حرف C يعني التي في المنتصف، بإمها مقابل باب المصعد تماماً.

بقيتُ لبرهة.. كأني حائر بين رغبتي بالذهاب واستثمار الفرصة التي طالما انتظرتها للانفراد بأبسي، وبين ترددي وحشيتي من هذا الانفراد.. ربما كانت رغبتي أن أبقى برفقة فاطمة أكبر؟.. وجدتها مازالت واقفة تستند على المكينة وتنظر إليّ كأنها تنتظر انصرافي.. فانصرفت.

وقفتُ أمام باب شقة أبي ترافقي حيرتي، دقات قلبي تتسارع ومعها أنفاسي، أحاول التّصنّت لما يحدث خلف الباب.. لا شيء غير الصمت.. فهل أقرع الجرس؟.. هل أنقر على الباب بأصابعي؟.. هل أنصرف متهرباً؟.. أم أفتح الباب مباشرة وأدخل؟.. ربما لهذا الأمر الأخير نفسه قد أعطتني فاطمة المفتاح.. لكن كيف سأدخل بيتاً بلا سابق تنبيه ولم أفعل أمراً كهذا منذ مغادرتي لبيتنا القروي؟.. ولكن هذا هو بيت أبي أيضاً؟.. طرقت على وجه الباب بأطراف ظاهري أصابعي طرقات خفيفاً بالكاد أسمعها أنا نفسي.. ربما هو مجرد تيرير لأقول، فيما لو سؤلت، بأنني طرقت دون أن أكون كاذباً.. انتظرتُ قليلاً.. ثم أوجلت المفتاح، أدرتة ببطء، ودفعت صفحة الباب بحذر وهدوء أبطأ.. كمن يفتح صندوقاً قديماً. دخلت بأقدام صامته ورددتُ الباب مهدوء شبيه بالذي فتحته فيه.. لا شيء سوى الصمت الذي يتسده شخير أبي في ركن ما.

الصالة ضعف صالة شقتي اتساعاً وفي جدارها المقابل للباب نافذة تطل على فناء ضيق بين جدران البنايات المجاورة. ثمة أربعة أبواب أخرى داخلية، أحدها مغلق أما الثلاثة المفتوحة فهي: المطبخ، الحمام وشخير أبي، إنها غرفة النوم حتماً. اقتربت منها، ورأيت ملقى على السرير على بطنه بملابس سهرة الأمس وبالجوربين. لم أر أبي أو أحداً من قبل في قريتي ينام على بطنه بهذا الشكل، وأذكر تلك المرة التي تمرني فيها جدي غاضباً حين رأني منبطحاً على بساط مضافته بهذا

الشكل فصاح: قم، انفض وعَدَل وضعك.. وإياك أن تسطح مره أخرى على الأرض بهذا الشكل.. فهذه رقدة شيطانية.

ولا أتذكر من ذا الذي فسر لي الأمر بعدها بالقول: ذلك لأن الأرض هي أمنا ولا يجوز لنا الانبطاح عليها على هذا النحو.. كمن يضاجع زوجته.

عدت بخطواتي البطيئة الحذرة، حد التشنج. جلست على الكنبة التي تصدر الصالة تحت النافذة المطلة على الفناء، ورحت أتفحص المكان في ضوء النهار المتدفق منها. على الطاولة الواطئة أمامي وجوار منفضة السجائر وبعض الصحف الألمانية كانت حزمة مفاتيح أبي ملقاة، عرفتُها من خلال الميدالية العتيقة التي تجمعها، سلسلة قصيرة تنتهي برصاصة مفرغة، صارت مائلة من حمرة النحاسية إلى الأصفر بحكم الملامسة. هي ذاتها التي ظل يحملها معه منذ الأيام الأولى اللاحقة على حادثة اصطدامنا بمحافضة تكريت، ظَهَرَت مع ظهور تسميتنا بالقشامر.. إنما الرصاصة ذاتها التي بقيت في كف أبي ولم يُدخلها في مؤخرة الصبي الذي تمرش بإستبرق، فقد أنقذته دواب السوق حينها. ولا أدري.. كيف استطاع أبي تحببها والاستمرار معها، نفسها، بعد حملة التعذيب وبعد مرور الأعوام.. ثم كيف مررها عبر المطارات إلى هنا؟!.

على بقية الجدران بوسترات لمناظر طبيعية تشير الكلمات، التي تذيّلها، إلى أنها مناظر ألمانية. بوسترات أخرى كبيرة لفتيات شبه عاريات بأوضاع إغراء تدعي النشوة..

والشفاه، كالعادة، على تلك الصيغة التي صرّت أمقتها لتكرارها المبتذل، أي يكون الفم نصف المفتوح، بارتحاء فج على شكل دائرة تدّعي الاستعداد للتقبل.. لا أدري من ذا الذي أدخل في أذهان النساء

هذا المشهد الساذج تعبيراً عن الإغراء!.. لقد صرت ألقى بنظري أولاً إلى شفاة النساء في صور الصحف والإعلانات والتقاويم، وما إن أجدّها على هذا النحو المستهلك حتى تسقط أية دلالة للإغراء وأشعر بزيفها بالغ السذاجة، فأقلب الصفحة كنوع من رفض الموافقة على ضمني إلى قطع المستهلكين المتقبلين للأمر.

شخير أبي مرتفع وفي الجهة المقابلة يرتفع ديكور خشبي يتوسطه التلفاز وتحتشد بقية رفوفه بالكتب وأشرطة الفيديو والموسيقى وآنية أخرى من الخزف والزجاج وديزينات كؤوس موحدة.. مشهد تقليدي، هو الآخر، يتكرر في البيوت التقليدية. حيث تقف أيضاً في زوايا الرفوف الصور العائلية، وهنا بالطبع فهي لأبي مع روسا في أكثر من مكان أو مدينة عرفت منها برشلونة على شاطئ البحر وبغداد أمام نصب الحرية. تستند الصور بوقوفها على ظهور الكتب التي تتراصف جميعها، باستثناء القرآن الذي يمنح وجهه غلافه، المطرز بكلمة (الكريم) الذهبية، للناظرين في أعلى الرفوف مستنداً على مجلدات تفاسيره.

واصلتُ التفحص على هذا النحو.. نحو نصف ساعة، نهضت خلالها أتجول بخطوات مازالت مقيّدة، ملقياً بنظرات على دواخل المطبخ، الحمّام، بعض عناوين الكتب وأشرطة الأفلام، من النافذة إلى الفناء، أيضاً، ومن وسط الصالة إلى غرفة شخير أبي الذي كان ينوع إيقاعاته، بعضها يجفلي، فأحسبه يوشك على الاختناق.

خلال هذا الوقت انتظمت أنفاسي واستعادت دقات قلبي روتينها، صرت أكثر تألفاً مع المكان. لذا لم يبق لي إلا أن أبدأ مواجهتي مع أبي. وهكذا اقتربت منه بمدوء. وضعت كفي على أحد كتفيه برفق، فتوقف شخير، وتوقفت أنا أيضاً قبل أن أردد مناداتي التي

لم أمارسها منذ أعوام طويلة.. لذا كنت كمن يفص بها.. كمن يتحسس الكلمات ويستعيد إيقاعها المنتزع من مكامن الروح المجهولة، ويشعر بفيزيائيتها حد اللمس المُدرِّ للدمع الخائق:

- أبي.. أبي.. يا أبي.

تلملم، وانقلب على ظهره مهمهماً بنقل: - هاه.. نعم.

ثم فتح عينيه بصعوبة، ثم دهشة، وقال: - أوه.. سليم.

جلس على الفور فاركاً عينيه كطفل كسول ومحاولاً إخفاء وقع المفاجأة عليه بالقول:

- صباح الخير.. كم الساعة؟

ولمض وهو يضيف: - إنها فاطمة بالتأكيد.. هي التي بعثتك.

وعقب وهو يبحث عن فردتي نعله جوار السرير: - إنها طيبة..

وبنت حلال.

تخرجنا إلى الصالة، شعره منفوش وبدت الشائبة من ذوائبه تحت المصبوغة. بحث عن شيء ما.. إنه يبحث عن سحائر. هز علبة كانت جوار التلفاز، فتحها، ثم عصرها بقبضته وألقاها على الأرضية:

- اللعنة.. إنها فارغة.

قلت: - أنا لدي سحائر.

- ما هي؟

أخرجت علبتي من جيبي وأريته إياها فقال: - لا.. هذه خفيفة.. لا تنفعني.. هل أفطرت؟

وتوجه إلى التلاجة، فتحها وأدخل رأسه فيها وقال: - نحتاج إلى حليب.

ثم عقب مازحاً: - لكن الأبقار الآن في المرعى.

وضحك مرتباً على كفتي بدلالة حميمة. شعرت عندها بأنه أقرب إلى أبي الذي عرفته في الماضي.. وكان عبارته التي أطلقها بإحياء واضح عن الأبقار علامة على المشترك بيننا هناك في قريتنا البعيدة.

قلت: - سأنزّل وأجلب الحليب والسجائر.. أي سجائر تريد؟.

أشار إلى العلبة المفكوّصة في الأرضية: - هذه.. أو فقط قل للصينين، في المحلّ المقابل للمرقص، تعرفه؟.. قل لهم أريد سجائر وحليب وجبن ألماني للسيد نوح وهم سيعرفون المطلوب، وأنا أثناء ذلك سأجهز القهوة وأستحم.. أو كي؟.. هاك خذ فلوس. - لا.. لا داعي، هذا أمر بسيط.

وتجرات على ملاطفته فأضفت: وأنت مدعو من قبلي للإفطار في بيتك.

ضحكنا بمودة تقربنا. وخرجت حاملاً بقايا ابتسامتي حتى مدخل المحلّ الصيني. وبالفعل: ما إن أحيّرت البائعة الصينية بما طلبه السيد نوح حتى أتتني به على الفور. فعدت أحمله صاعداً إلى المطبخ، فيما كان أبي يترنم بأغنية ألمانية تحت الدش في الحمام. فابتسمت ورحت أعد الإفطار، مرتباً إياه على طاولة الصالة بعد أن أزحت عنها كومة الجرائد ومفرغاً للمنفضة، تاركاً حزمة مفاتيحه المشنوقة بالرصاصة على الحافة، في مكانها.

خرج أبي من الحمام بقامته الهائلة وشعر صدره الذي طغى عليه لون الرماد، لافاً منتصفه بمنشفة بيضاء عريضة وقال حين رأى المائدة جاهزة: - كُلْ إذا شئت.. سأتي حالاً.

- لا.. أنا أفطرت، هذا لك.. سأتناول معك فنجان قهوة فقط.

ودخل هو إلى غرفة نومه، ليخرج منها بعد دقائق بملابس أخرى نظيفة أنيقة، وقد مشط شعره رابطاً إياه إلى الخلف على شكل ذيل

حصان، وتفوح منه رائحة عطر نفاذة.. أعرف أنه يجب الإكثار من التعطر حد السكب منه على جسده سكباً. عادة قديمة لم يتخل عنها أسوة بجدي الذي كان يردد دائماً بأن النبي كان يحب العطر والنساء والصلاة.

أكل أبي بشهية وشرامة، فيما كنت أنا حائراً بشأن كيفية البدء بالحديث معه.. لذا كان هو، في البداية، أكثر من يوجه الأسئلة خلال مضغه للقماته. سألتني عن نفسي، وصحتي، وأحوالي وعملي.. وقال إنه لم يكن يعرف بأبي هنا في إسبانيا ولا أحد يعرف، من أهل القرية، عني شيئاً.. لكنه هو شخصياً قد كان في قرارته يشعر بالطمأنينة عليّ وبأبني بخير، في مكان آمن ما. فكان يُطمئن أُمي كلما بكت شوقاً إليّ ويخترع لها الحكايات والإشاعات عن نعيم عيش الهاربين خارج العراق. يقوم بتهدئتها وتواصل هي دعائها لي في صلواتها.

بدأت عندها بالدخول في أسئلتي عن أُمي، فقال: إنما كما هي؛ امرأة عظيمة تكظم حزنها وتواصل كدحها وهي الآن سعيدة بترية أحفادها. تعيش معها إستيرق في بيتنا، إستيرق تزوجت من إبراهيم ابن خالك، وكانت تريد أن تسمي ولدها الأكبر صراط.. لكنه مانع، ومعه حق، وأنت تعرف السبب.. فضحكنا وعرفت لأول مرة بأن أبي يعرف حكاية حب إستيرق لصراط.. وواصل: وهكذا لجأت مثل غيرها من أهلنا إلى القرآن في التسمية. لقد تحسنت صحتها كثيراً، لديها الآن ثلاثة أطفال وتركتها حاملاً بالربيع.. لقد أصبحت أكثر بدانة وليست تلك النحيلة (القصة) التي عرفتتها أنت.. بالمناسبة، هي تُعلق صورة كبيرة لك في صدر حجرها وترفع إليها أطفالها كل يوم قائلة: هذا خالكم سليم.. سيعود جالباً لكم الكثير من الهدايا. فينطقون باسمك قبل أن ينطقوا اسم والدهم.

انتهى أبسي من تناول إفطاره، أراح ظهره على مسند الكنبه جوارى وبدأ التدخين بتلذذ، فوجدته أكثر تركيزاً وحيوية واستعداداً للكلام، لذا رحت أجاربه بتدخيبي وتصاعد أسئلتي وجرأهما.. سألته عن كل شيء تقريباً باستثناء سؤاليين أساسيين فقط لم أجرؤ على البوح بهما: هل هو الذي قتل جدي في فجر تلك الليلة أم أنه قد انفجر بوجهه على تلك الصورة التي رأيتها، قبل مغادرتي، بعد أن تأكد من موته؟.. من أين له هذا الشغف بالنساء.. وكيف يمارس الحب مع روسا بحيث تجبه وتغار عليه إلى هذا الحد.. وهو الذي عطلوا ذكره وخصيته في حادثة التعذيب الكهربائي تلك؟.

.. وهكذا كنتُ أدور حول هذين السؤالين كفراشة حائمة حول نار وهي تمأذر الاحتراق.. أدور ضمن الأسئلة التفصيلية الأخرى عن القرية والأهل والحال هناك، فأخبرني بإسهاب وتحليل أحياناً، لقد طال حديثنا ودخاننا لأكثر من ثلاث ساعات كان أبسي خلالها، وحين يشتد به السرد ينهض منفعلاً، يدور في الصالة محرراً ذراعيه، ضاماً قبضتيه وصاكاً على عقب السيجارة بين أسنانه أحياناً، فبدأ كمن يمثل مشهداً مسرحياً عصبياً. وأعرف أنني عاجز هنا عن تدوين كل الذي قيل، ووصف تفاصيل حركاته وسكناته، فالدهشة، مما قال، كانت تستولي عليّ بالكامل.. لذا سأوجز مما دار بما أخبرني به مبتدئاً من اليوم الذي رحلت فيه أنا عن القرية، وهو اليوم نفسه الذي رحل فيه جدي عن الدنيا. لقد تغير كل شيء يا سليم.. تغير تماماً.

قال أبي:

دفنت القرية جثث أبنائها واستسلمت لأوامر الحكومة وضُعت منظومتها لتتحول بتدرج سريع إلى قرية عادية ككل القرى العراقية الأخرى. وتم الاكتفاء بدفن جدي في رأس أعلى مرتفع في المقبرة، ووضع رايات خضراء على ضريحه وجرار مليئة بالملح يلحق منها المتبركون كلما زاروه. ويقص المرضى شرائط من رايات قبره كي يعلقوها في رقابهم أو سواعدهم كأحجية مباركة بعد أن تم الاكتفاء بمكافأة الجند باعتباره رجلاً مباركاً ومن أولياء الله الصالحين. وعاد تجسير العلاقات بقرية الصبح بشكل تقليدي، وكف أهلها عن التغامز بلقب القشامر لا احتراماً وإنما خشية من الحكومة التي فرضت اسم (الفارس) ودست عيونها وأذناها في كل ركن.. على ضفتي النهر وجانبى الجبل، في اليابسة والماء والهواء والطين. أجواء الحرب هيمنت على البلاد بكاملها والتلفاز والمدارس والمنظمات الحزبية والشرطة كانت كلها أدوات الحكومة في التعبئة والسيطرة.. الحديد والنار.. الخوف والكبت والاستسلام بانتظار أمل بعيد بخلاص غامض يكاد ينقطع خيط رجائه.

وقال أيضاً: لقد راح الناس يتحللون تدريجياً من هيمنة ملا مطلق بعد رحيله، ويندرجون مستسلمين تحت هيمنة سلطة الحكومة الشرسة. انفضت بحالس دروس الدين في المسجد واجتماعات حل المشاكل الاجتماعية التي نقلوها إلى محاكم المدن. وقل المصلون ولم يعد أحد

يتحدث بالثأر للكرامة الذي عاهدوا الملا عليه.. ولم أفعل أنا شيئاً تجاه ذلك.. لكنني بقيت في داخلي متمسكاً بعهدي الذي قطعته على نفسي أمام أبي وأقسمت عليه.. وحدي أنا من كان يواصل عيشه تحت سلطة الحاج مطلق ويحرص على مواصلة طاعتها مهما بلغ الثمن.. لقد كان أبي بالنسبة لي.. يا سليم.. كل شيء.. كل شيء.. إنه القيمة والسلطة المطلقة في الحياة الدنيا والآخرة، وقد رأيت أنت بنفسك علاقتي به، لقد كان بالنسبة لي بمثابة المقدس، التاريخ، الدين، القيم، المطلق والحقيقة الوجودية الوحيدة أو مصدرها.. كان بالنسبة لي القوي العارف واليقيني الذي لا يُفترض معصيته.. لقد تربيته على ذلك منذ وعيت.. محفوراً في وجداني وتركيبتي بأن رضا الله من رضا الوالدين.. لذا كان رضاه، عندي، هو غايتي الكبرى.. بل إن أبي قد كان بالنسبة لي هو الخليفة الوحيد لله في الأرض.. وأعترف لك الآن وحدك، ولأول مرة في حياتي.. بأنني كنت غالباً ما أرى الرب مجسداً فيه.. كان - هو - بمثابة الإله المباشر بالنسبة لي، وتربيته هي التي رسّخت ذلك.. لم أحرز على النظر في عينيه يوماً على الإطلاق..

شيء واحد فقط كان يحول دون قناعتي تلك بالوهيته ويكسرها.. ألا وهو الندم.. نعم.. لأن الندم صفة بشرية أما الإله فلا يندم على شيء يفعله لأنه السابق واللاحق بمعرفته وعلمه وحكمته وإرادته.. أقول ذلك (الندم) وأعني جدك.. أبي.. فقد أخبرتني أمي ذات ظهيرة في موسم حصاد بعيد، أن الشيء الوحيد الذي فعله أبي وندم عليه وظل يندم على فعله إياه طوال حياته ويكيه أحياناً في حجرها في لحظات ضعفه.. هو أنه قد قطع لزوجه الأولى عقلة إصبعها السبابة حين أشهرته في وجهه مهددة.. الحادث يعرفه الجميع ويضربون به الأمثال.. لكن الذي لا يعرفه أحد سوى أمي وأنا وأنت الآن.. هو

أن أبى قد ندم على ذلك وظلت ذكرى هذا الحادث تعذبه.. فيما نفعتني أنا بتجريده من صفة الإله.. من هنا أيضاً حرصت على أن أتعامل معكم أنتم أبنائي بشكل مختلف، شكاً أو يقيناً في عدم مقدرتي على إتقان التربية القسوى كأبى، ومحاذراً، في الوقت نفسه، من فرض صورة الأب الإله عليكم كما حدث معي.. لذا كنت محايداً وبشرياً وصديقاً كما لاحظت.. كنت أمارس معكم شطري الآخر، أناي الأخرى، الحياتية العادية والبشرية.. فقد كنتُ وما زلت يا سليم، منقسماً إلى اثنين في داخلي.. واحد مقتنع مطيع موقن بالمقدس الذي يمثله أبى ومرتبطة بالعمل للأخرة، وآخر مرتاب متمرد شكاك بشري ومرتبطة بالدنيا، يحب الضحك والنساء والغناء والشعر والتمرد والخطيئة.. كنت أمارس الأول في القرية بحضور أبى، والآخر هناك في كركوك، في العمل، مع الأجانب والألمان منهم تحديداً. أما معكم فقد حرصت على الحيادية متحاشياً عكس صراع داخلي الشرس عليكم..

جسدك رجل عظيم يا سليم، لكنه ربما وُلد في غير عصره، إنني أحبه بشكل كبير.. وأود لو أجد خلاصاً من هيئته علي إلا بالوفاء له بالحذافير، وفي الوقت نفسه، ثمة نصفي الآخر الذي لا بد أنك لاحظته هنا واستهجنته في.. إنني أطلقُ له العنان وأسوق له التبريرات.. يا سليم.. أحرره من سجنه الذي طال، تاركاً له حرية الاعتناق حتى يستفرغ كل مكبوتته أو أرى إلى أين يصل.. ولكن لا تظن أبداً أن نصفي الأول قد انتهى، أو أنه قد كف عن وظيفته بالمراقبة والتأنيب.. لكنني كمن يمنحه إجازة أو استراحة بعد أن مارس وجوده طويلاً وسيظل يمارسه.. بل إنني أحده أحياناً هو الذي يواصل هيئته، وهو ذاته الذي يستخدم الآخر بهذا الشكل لأغراضه.. فهو الذي دفعني

للمغامرة المصيرية التي أوصلتني إلى هنا ممتطياً الآخر المقموع ويُسيّره من أجل تنفيذ التزامه، عهده، قَسَمه أمام جدك العظيم بالثأر.. لا أدري إذا ما كنتُ قد عبرت جيداً عن هذا المتشابك في نفسي.. أو أنني قد أرضيتك بإجابتي وتفسيرتي هذا، أم أنني قد خيبت أملك.. ولا أدري فيما إذا كنتُ أباً صالحاً لك، أو الذي تريد.. فأبي الذي شغلني حتى عن إرضاء نفسي هو ذاته الذي شغلني عن التفكير بإرضاء غيري.. حسناً سأحاول الآن أن أرسم لك الأمر وفق حركته على الواقع عبر الحكاية التي أوصلتني إلى هنا.. أو بالأحرى حكاية وصولي إلى هنا.

بعد غياب (لم يقل: موته أو مقتله) جدك كنتُ في أشد حالات صراعي مع نفسي، ووحدها أملك التي كانت تدرك هذا الألم.. لكنها وكما تعرف ظلت هي كما هي عظيمة تمارس أمومتها على الجميع.. كنتُ أذهب إلى قبر أبي، أبكيه هناك، أتلو له القرآن كي أطمئنه على أنني مازلت أحفظه كاملاً كما أراد، أناجيه أتحدث معه، أسأله وأشعر بأنه يجيبني، وأؤكد له عهدي معه والتزامي بما يريد مني، وخاصة قسمني على تنفيذ الثأر.. وهل تُصدق بأنني لم أجرؤ أيضاً على النظر إلى شاهدة الرأس وإنما كنتُ أمسحها بكفي وأقبل الكف.. وحين أعادته كنتُ أسمع صوته بناديني: اسمع يا نوح. يردد قولته الشهيرة، ويردد الجبل صداها: إذا نبح عليك الكلب فلا تنبح عليه ولكن إذا عضك فعضه.. فعضه.. عضه.. عضه.. ضه.. ضه.. هـ.. هـ.. هههههه..

تأخرتُ عن عملي في كركوك لأكثر من شهرين، ثم ذهبت بنية تقديم استقالتني فوجدتهم قد فصلوني لطول غيابي وعينوا غيري.. منحوني ما تبقى لي من مال مستحق وعوضوني بمبلغ جيد. فذهبت إلى صديقي الكردي كاكه آزاد، وهو صاحب ثروة كبيرة وحزن أكبر، تعززت علاقتي به طوال أعوام عملي هناك، حيث كنتُ أذهب إلى

مطعمه وأستودعه أغراضني وأسراي، وكان كثيراً ما يصطحبني إلى بيته الذي يعيش فيه وحيداً ونسهر هناك أو أبيت عنده، ويوصلني إلى العمل بسيارته صباحاً.. ولآزاد حكايته الطويلة المُرّة أيضاً، موجزها: أن الحكومة قد قتلت عائلته ودمرت قرينته التي وجدها حطاماً.. خراباً حين عاد من إحدى رحلات التهريب التي كان يقوم بها إلى إيران وتركيا. يهرب البضائع والأشخاص.. فأقسّم هو الآخر على أن ينتقم. غير بطاقته واستقر في كركوك بعد أن فتح هناك مطعماً فخماً، يستطلع منه الأمور ويتقرب إلى رجال السلطة، يستدرجهم ويستدر المعلومات منهم وعنهم لنفسه، كما يوصلها إلى المتمردين في الجبال ويدبر مؤامراته.. كنت أحدثه عن كل شيء وتعززت صداقتنا حد المواخاة.. فتعاهدنا ذات فجر في محراب مسجد على الأخوة بالقسم على القرآن، ومنح كل منا شعرة من شاربه لأخيه.. ولا أنكر أنني قد كنت في ذلك أقلد أبي أيضاً باتخاذة للشيخ عبدالشافي الكردي أحاً له.. تتذكره؟.. الذي ذهبنا إلى بيته لعلاج إستيرق.

لقد علمني أخي آزاد الكثير.. وإذا كان جدك قد زق في دمي قيم الكرامة والرجولة وأخلاقيات بعينها، فإن آزاد قد صبها في عظامي كالأسمنت صلباً، وعلمي حرفية ممارستها بقلب ثابت.. علمني صلابة العناد، وكان يهدي كل عملية يقوم بها إلى روح أحد أفراد عائلته، وعند الانتهاء يعاود بالتسلسل إهداءهم عمليات أخرى.. وهكذا. تعلمتُ منه أيضاً، لبس الأقنعة وممارسة الأدوار المتباينة وتجسيد الشخصيات المختلفة حد التطابق.. وحين أخبرته بعهدي مع أبي وقسّمي على أن أدخل هذه الرصاصة المتبقية - أخذ ميدالية مفاتيحه وهز الرصاصة في قبضته - في مؤخرة ذلك الوقع الذي تسبب بكل ما حدث. ربت آزاد على ركبتي وقال: أحسبك.. لأنك تعرف وجه

عدوك، وأمرك أسهل.. فلست مثلي أنا الذي أحارب عدواً هائلاً،
أخطبوطياً، لا وجه له.. رجال السلطة والحزب والجيش وأعوافهم..
اطمن فسوف تبر بقسمك وسوف تنأر أيضاً لابنك المقتول في حرمهم
ولبقية أبناء قريتك واحداً واحداً. تمنيت لحظتها لو أن أبي كان
يسمعنا.. فبكيت وتعانقنا.

إنسرها قررنا الانتقال إلى بغداد. باع هو مطعمه في كركوك
وفتحنا معاً مطعماً فخماً بين شارعي السعدون وأبي نواس.
عندها قلت لأملك بأنني راحل لأبر بقسمي وتواهبنا؛ قلت لها: أنا
راض عنك. وقالت: إنني راضية عنك. فهي تعرف ما يعنيه القسم
على القرآن، وتعرف جيداً ما يعنيه لي أبي، الذي يعني لها القيمة
والقيمة ذاتها. قلت لها إنني لا أدري كم سأغيب ولا أعرف أين
سأكون ولا إلى أين سأتجه ولا أدري فيما إذا كنت خلال غيبي
سأعاشر أو أتزوج نساء أخريات، أو أنني سأموت. فإذا أرادت أن
أطلقها سأفعل أو فلتسامحني عما قد أفعله أو أضطر لفعله أو ما
سيحدث معي.. بكت، بالطبع، وقالت: افعل ما تشاء.. ولا أريد
الطلاق منك.. فكونك زوجي ووالد أولادي هو أمر يشرفني. أنت
تاج رأسي وأريدك في الآخرة زوجاً أيضاً. ظلت قوية القناعة
وتفهمتي.. بل منحتني بتشجيعها القوة والعزم واعدة إياي على أن
تحل محلي في إدارة البيت والعائلة والدعاء لي في صلواتها.. مقابل
ذلك رجحتي أن لا أدخر وسعاً بالسؤال والبحث عنك، فوعدها..
وتوادعنا. قدمت لي ذهبها، فقلت لها لدي الوفير من المال ومنحتها
منه شيئاً ثم غادرت، مثلك، ذات فجر بعيد ولم أعاود اتصالي بها
حتى هذه اللحظة.. بل ودون أن أهتم بوعدي لها بالسؤال والبحث
عنك.. فلم يكن ذلك ليشغلني.

في بغداد صار مطعمنا مفضلاً للكثيرين من المسؤولين والمتنفذين والأغنياء، كنا نغريهم بتعاملنا وكرمنا وتزلفنا فنكسب صحتهم ونيسر فسقمهم، فعرفنا عنهم الكثير، وفي الوقت نفسه، كلنا لهم العديد من الطعنات المحكمة التدبير. جمعنا المزيد من المعلومات الدقيقة عنهم وأوصلها آزاد إلى المتمردين والمعارضين. وعرفنا أن ذلك الصبي الذي أبحث عنه قد تم تعيينه ملحقاً ما في السفارة العراقية في إسبانيا. وهكذا رحنا نبحث عن سبيل يوصلني إليه.. إلى أن حدث وأن جاء مسؤولون من وزارة الإعلام بوفد سياحي إسباني للعشاء في مطعمنا، فتعرفتُ على روسا.. وهكذا تم الباقي.. لحظة.. يا سليم.. لا تفكر بأنني قد استخدمت روسا وخدعتها، وإن كنتُ في حقيقتي.. لم أكن لأتردد في فعل ذلك. فقد ارتكبتُ برفقة أخي آزاد ما هو أدهى.. لكن الذي حدث هو التوافق بين غايتي وبين عاطفتي، فقد أحببتها فعلاً وهي قد أحببتني.. وهي المرأة الوحيدة التي أحببتها واخترتها بنفسني لنفسي. فكما تعلم أن أمك قد اختارها لي جدك وكان لقائنا الأول بها في ليلة عرسنا.. ومحبي لأملك قوية ولكنها ليست الحب المعروف بين امرأة ورجل.. كيف أشرح لك؟.. يعني كنا زوجين ناجحين جداً لكننا لم نكن حبيين عاشقين.. أما روسا فقد عشقتها واخترتها بمحض إرادتي أنا. ولما أشياء كثيرة تجمعنا.. وهكذا هي التي قامت بكل إجراءات وصولي إلى هنا، تحدثت مع السفارة والوزارة الإسبانيتين، ووقعت على الوثائق والضمانات المطلوبة، ودفعت أجور كل ذلك بما فيها الرحلة إلى هنا.

أقمنا في بادئ الأمر في برشلونة ثم أقنعتها بالهجرة إلى مدريد وإقامة هذا المشروع المشترك.. لكنها لا تعرف شيئاً عن نيتي الأخرى، التي قطعتُ في الوصول إليها شوطاً كبيراً، فقد جمعت المعلومات الوافية

والدقيقة عن مواعيد الدخول والخروج والبيت والأماكن المفضلة لهذا الحيوان. وكسبت ثقة شاين قوين محترفين من عصابة كولمبية كمي يعينوني. أصبحت مهين لفاتحتها في أي وقت أشاء، وهكذا فقد أصبحت مهمة تنفيذ غايي والبر بقسمي لا تتعدى كونها مسألة وقت قليل، واختيار للمكان وللحظة المناسبين.. ها.. ما رأيك؟.

بالتأكيد لم يكن لي رأي في تلك اللحظة وأنا واقع تحت سطوة المفاجأة، وأبسي الذي لاحظ دهشتي بوضوح، لم يصر على سماع رأي فوري، لذا فهو لم يمانع حين دعوته للخروج وغيّرت الموضوع متظاهراً بأولوية التفكير بحلّ لحدّ روسا، فقال: اسبقني أنت إلى المرقص، انتظري هناك، فيما سأتصل أنا بما الآن ونرى.

وجدت الباب الخارجي للمرقص مفتوحاً إلى منتصفه. ظللتُ برأسِي وناديت فاطمة فجاءني صوتها أن: ادخل. فدخلت دون أن أغير من وضع الباب. وما إن نزلت ورأيت حتى أخذتني دهشة أخرى، من نوع آخر، خففت من مرارة الدهشة السابقة مع أبي. لقد وجدت المكان نظيفاً ومرتباً كأن فريقاً متخصصاً قد انتهى لتوه من تركيب الديكور، وبالفعل كانت فاطمة قد انتهت لتوها من ترتيب كل شيء حيث وجدتها تضع الللمسة الأخيرة وهي ترش مُعطر الجو حائمة تبُخ أريجها بين الأركان مبتسمة وتسال: ها.. ما رأيك؟.

ولها، بالطبع، أستطيع إعطاء الرأي فوراً: مُدهش.. كيف فعلت كل ذلك؟.. أنتِ بطلّة!

فندت ابتسامتها عن ضحكة راضية وهي تدخل خلف دكة البار وتسالني فيما لو كنت أرغب بتناول شيء، قلت لها: لا، فأنا بانتظار نزول أبي.

- كيف وجدته؟.

قلت (جيد) وأنا أسارع لتغيير مسار الحديث إلى أي شيء آخر.
فسألتها: كيف صارت يدك؟.

- إنها تمام.. قلتُ لك، إنها مجرد جرح بسيطة.. ليت كل جراحننا
كهذه.

ثم رحبت أسألها فيما إذا كانت ستذهب إلى بيتها؟ هل ستعمل
اليوم؟.. وحديث عادي على هذا النحو قطعته، بعد قليل، صوت إزاحة
الباب ودخول أبي بحوية وابتهاج منادياً باحتفالية وفتحاً ذراعيه
كممثل مسرحي.

- هاي.. فطومة.. فافي.. صباح الخير يا حُبي.

- أهلاً يا سيد نوح.. صباح النور.. كيف حالك أنت؟.

- أنا بخير كالحصان كما ترينني، سنذهب أنا وسليم لتناول الغداء
فهل تحبين أن تأتي معنا؟.

- لا.. شكراً، عليّ أن أذهب إلى البيت، فأنا أحتاج إلى مزيد من
النوم وهذه الليلة أماننا عمل كثير أيضاً.

- اسمعي.. إذا شئت ألا تأتين فيإمكانك ذلك، فقط أخبريني
بالمهاتف لأتدبر الأمر، على الرغم من أنني بحاجة لوجودك الليلة أكثر،
ولكنك قد بذلت في الأمس واليوم جهداً كبيراً. تستحقين عليه المزيد
من الاستراحة.

- لا أهتم يا سيد نوح.. سأجيء بالتأكيد.

- حسناً.. إذا سامنحك، كمكافأة، يوم الأربعاء أيضاً استراحة
إضافة إلى يومي الاثنين والثلاثاء المعتادين.

وربت أبي على كفتي قائلاً: - إذا.. هيا بنا يا سليم.. وأنت
اذهبي الآن يا فاطمة.. نراك هذه الليلة، وبإمكانك الوصول متأخرة،
إذا شئت، أي بعد الثانية عشرة عندما تبدأ السهرة.. إلى اللقاء.

خرجنا، فقادي إلى محل الصينيين ليشتري علبة دخان أخرى. هناك دخل باحتفالية أيضاً، وتمازح مع المرأة البائعة مردداً بضع كلمات بالصينية فهمت أنها التحية وكلمتين أخريين ربما بذيتين لأن المرأة ضحكت وهي تردد رادة عليه بالإسبانية: - لا.. لا.. أنت.. أنت.

خرجنا بعدها وقادي من شارع ضيق إلى آخر، من زقاق إلى آخر، وصولاً إلى مطعم إسباني تقليدي تشهد واجهته على قدمه، تفوح منه رائحة الأخشاب العتيقة حال الدخول إليه.. وبينما كان هادئاً خلال مسيرنا، ممتدحاً لطف الجو، مثيلاً على فاطمة وطيبة الصينيين بعبارات عادية ليست أكثر من محاولة لإشغال الصمت، وملقياً بقطع نقدية عند رأس متسكع نائم في إحدى الزوايا قائلاً: مسكين مريض بالإيدز. وجدته يعاود ممارسة احتفاليته حال الدخول إلى المطعم صائحاً بالنادل هناك ومنادياً إياه باسمه (خوسيه) الذي راح وصاحب آخر له يردان باحتفالية حميمة موازية. ثم أشار لي بالجلوس على طاولة في أقصى زوايا صالة المطعم، مجاورة لنافذة تطل على الزقاق، فيما توقف هو معهم شارحاً لهم طلبات الغداء بمفردات إسبانية مرتبكة اللفظ والترابط مستعيناً بالتأشير بأصابعه على قائمة الطعام أو على نماذج من الأطعمة المعروضة ذاتها.

وهناك، في الزاوية المضاءة بنور الناظفة النهاري، حيث كانت الساعة المواجهة تشير إلى قرب الرابعة عصراً. تناولنا غداءنا، وشرابنا، ودخاننا وأحاديثنا على مهل وروية. عاودنا استكمال تفاصيل ما تناولناه في حديثنا السابق وترميم العديد من المشاهد.. وأعرب عن رغبته الجامعة بالاتصال بأزاد لإخباره بأنه قد وجدني، قال: - هذا سيفرحه جداً. ثم عقب: لكنني لا أستطيع فعل ذلك.. لأننا قد اتفقنا على ألا أتصل به أبداً إلا بعد أن أنفذ غاييتي، وعندها سأتصل به دون

أن أشير؛ لا من بعيد ولا من قريب إلى ما فعلته.. فمجرد الاتصال بجد ذاته سيعني أنني قد نفذت المهمة.. وعندها نتحدث عن الأمور العادية الأخرى والأحوال والسلامات.. هل تعلم.. لقد اتفقنا أيضاً على أن نذهب للحج معاً حال الخلاص من نظام الطاغية وعندها نتطهر من ذنوبنا وتوب إلى الله ونحاول الاستقامة.. لقد حاولت إقناع أخي آزاد لأكثر من مرة أن يتزوج ويبنى عائلة جديدة، وهو متمكن من ذلك صحياً ومادياً، ولكنه ظل يرفض قائلاً بأنه قد قطع العهد على نفسه بأن لا يتزوج ولا ينحب إلا بعد نهاية الطاغية، فهو لا يريد أن يجلب أبناء آخرين سيعانون القهر بوجود الدكتاتور أو برؤية خلقته.

عندها أخبرت أبي بما سمعته وأقرأه من الأخبار عن نية الولايات المتحدة الأمريكية بتأليف تحالف ومهاجمة العراق إذا لم يسمح بالتفتيش ونزع أسلحة الدمار الشامل. فقال: أية أسلحة دمار شامل.. وهل هناك ما هو أكثر دماراً من الدكتاتور نفسه الذي قتل وشرذ ملايين، فلماذا لا ينتزعونه ويخلصوننا!؟. نتجادلنا بعدها سياسياً، أنا أرفض مهاجمة العراق تحت أية ذريعة وهو يقول أن الخلاص من الدكتاتور أمر يستحق دفع أخط الألمان. قلت له - متعمداً - أن ألمانيا، مثلاً، ترفض المشاركة في تحالف كهذا، ففاجأني جوابه بأن: طبعاً.. الألمان شعب عظيم، متحضر يحترم القوانين، وأمر قدر كالدكتاتور يحتاج إلى ند مثله كرئيس أمريكا مثلاً.. هم وضعوه وهم جديرون بخلعه. بعدها سنعرف كيف نواجههم، لأن التصدي للصوص غريب أهون من التصدي للصوص البيت.

لم يكشف لي الحوار السياسي وجهاً آخر لأبي فحسب، وإنما وجهاً لطبيعة مرارة الحال هناك في العراق ونفاد الاضطراب على أمل الخلاص.. الحديث حتى هذه النقطة قد كشف لي عن تمسك أبي

بشخصيته الأخرى، الثأر، والعودة إلى الالتزام الديني.. وهنا سمعت لاستحضار الجانب الآخر منه كي أرى حضورهما معاً، أو على الأقل لأتمكن من تحسس مدى قوة أحدهما قياساً إلى الآخر.. فسألته إذا كان قد تكلم مع روسا في الهاتف، وبماذا أجابته؟.. هبط حماس صوته قليلاً وأشعل سيجارة أخرى ثم قال إنها غاضبة منه كثيراً، ولم يستطع أن يفهم منها غير الرفض، لأنه لم يستطع أن يسمع كل كلماتها، لأنها كانت تتحب وتتشج باكية في الهاتف وتشمه.. ثم علق ممعناً في تذوق الكلمات التي ينطق بها: تبدو وكأنها ثور جريح، من وجهة تعبير إسبانية.. أو وكأنها لبوة جريجة، من وجهة تعبير عراقية.. وهي كذلك.. إنني أفهمها.. وأعذرهما. ثم صمت للحظات وراح يحدق من النافذة. فسألته عما يفكر بفعله.. تنهد وعدل من جلسته واضعاً كفيه على الطاولة ثم ناقلاً نظراته للتفرس في وجهي بجديّة ومباشرة وقال: لستُ راغباً بأخذك من حياتك الخاصة وجرك إلى شؤوي.. لكنني بحاجة إليك.. إلى مساعدتك.. فهل تستطيع؟.

أوقفت أنا الآخر انشغال استرخائي وانتصبت في جلستي يقظاً ومتسائلاً.. فأضاف: روسا غاضبة مني جداً.. ومعها حق في ذلك.. إنني أفهمها.. لكنني متأكد أيضاً من حبها لي، والمرأة العاشقة هي دائماً على استعداد للعفو.. بل إنها تنتظره وتريده.. إلا أنها تنتظر، في الوقت نفسه، طريقة مبتكرة أو خاصة بالاعتذار منها؛ تُشعرها بضمن استحقاق عفوها.. من ذلك طبعاً الهدايا والورد والكلمات الخاصة، لكن كلما كانت المشكلة مختلفة فيقترض البحث عن طريقة مختلفة تناسبها بالاعتذار، وعليه فأنا أفكر أن تذهب إليها أنت.. نعم أنت.. وغداً إلى بيتها في برشلونة، سأعطيك عنوانها ورقم هاتفها ونوع الورد الذي تشتريه ومن أين والكلمات والوقت المناسب.. وهكذا سيكون الأمر لها

مفاجأة كبيرة.. فهي تعرف مدى أهمية أبنائي بالنسبة لي، وأنت تحديدًا، وسيكون هذا أيضاً بمثابة اعتراف مني بحبي لها أمام عائلتي وهذا أمر يهم كل امرأة.. المرأة تشعر بثقة أكبر كلما وجدت حبيبها يقدمها ويعترف بها أمام الأشخاص الذين تعرف بأنهم يهمنه.. كذلك سيكون الأمر فرصة جيدة لتعارفاً بشكل أفضل.. (لحظتها أيضاً فكرت في أن أسأله عن كيفية علاقتة بالنساء بعد ما حدث له في التعذيب الكهربائي.. لكنني لم أجرؤ..).

أبسي نبرته وسلاسته الخاصتان في طرح حكمته، وفي أسلوبه بالإقناع.. وهذا الطرح، بقدر ما فاجأني، بقدر ما أعجبتني جانب الذكاء فيه، وانتابني لذلك شعور ما، بالرضى لأنه يستعيد تقاربنا بشكل أكبر.. أو ربما لشعوري بأنه بحاجة إلي.. لذا لم أكن رافضاً، بل أغرائي الأمر، فأخبرته بأنني ملتزم بالعمل ولن يكون من السهل الذهاب إلى برشلونة وحل الإشكال والعودة في اليوم نفسه ثم الذهاب إلى عملي مباشرة.. لذا لا بد من التفكير بطريقة ننظم بها جدولاً مناسباً.. أو أن يمهلني لأطلب إجازة قصيرة لبضعة أيام من عملي..

وهنا جاءت مفاجأة أبسي الأخرى، والتي عبر عنها بيقين ورغبة أكبر من السابقتين، وهو يقول: ما رأيك في أن تترك عملك وتأتي للعمل معنا في المرقص.. نحن.. أنا بحاجة إلى وجودك.. وسندفع لك مرتباً أفضل، وتكون حراً في اختيار أوقات عملك.. تكون أنت سيداً من أصحاب العمل لا من مستخدميه؟..

فبسمت.. وربما شهقتُ كمن يُبَخَّ وجهه برذاذ ماء بارد، ثم استطردتُ، لا رافضاً.. أيضاً، وإنما استطراداً مشاهماً لسابقه، فقلت: لكنني لا أفهم في عملكم شيئاً ولا خبرة لي فيه من أي نوع!..

ألقى بظهره على المسند نافضاً رماد سيجارته عن بُعد، ونافضاً
كفه الأخرى استخفافاً قهوينياً: - لاه.. هذه أمور بسيطة، وهذا عمل
لا يحتاج إلى خبرة واحتراف.. يمكنك أن تتكفل بصندوق الحسابات
مثلاً، أو بطلب الحاجات والتفاوض حول أسعارها ونقلها.. يعني أشياء
إدارية عامة، بل إن أمور العمل الأخرى يمكن لفاطمة أن تعلمك إياها
في سهرة واحدة.. هذه أمور بسيطة.. بسيطة يا سليم.. ها.. ما رأيك؟.

رأيتُ بريقاً يتراقص في عينيه ورغبة مكبوتة بالقفز والصراخ جذلاً
عندما وجد مني الاستجابة الموافقة. مد كفه إلى جيبه وقال: اذهب إلى
برشلونة بالطائرة هي أسرع وأكثر راحة.

لكنني ممن يفضلون السفر بالقطارات، شيء أشعر معه بامتلاك
فرصة طويلة من التأمل الذي أستدرّه على إيقاع سير القطار وهو يمرق
بين وجوه الجغرافيا المتنوعة.. وكم يطيب لي أن أجلس فيه قرب نافذة
أطل منها على حركة الأرض، أشجار، أنهار، تلال، قرى، مدن،
حيوانات، جبال، سهول، حقول، غيوم.. استعراض طويل لأرض
عريضة وسما فسيحة. عندها يسرح ذهني بالمراجعة والتذكر والتحليل
والتخطيط والأحلام. صمت متواصل وتأمل متواصل.. تأمل يتم تناوبه
بين الخارج والداخل.. إذا لم أتأمل الخارج أتأمل الداخل أو العكس..
حيث تكون عيناى محدقتين في أحدهما - الخارج أو الداخل - فيما
عين الوعي تنبش في الآخر.. أو ينقلني أحدهما إلى الآخر عبر قنوات
خفية منها الاستبصار مثلاً.. كما أن للأمر سمة رومانسية ربما انطبعت
في ذهني من مشاهداتي للأفلام القديمة التي تكتظ بلقاءات وتوديعات
وانتظارات العشاق في محطات القطارات أو شرودهم - مثلي الآن -
للتذكر والتأمل، وهم أيضاً، عادة ما يختار لهم المُخرج المقاعد المجاورة
للتوافق..

وهكذا فأنا لم أقرأ من الكتاب الذي حملته معي أكثر من سبع
صفحات، ذلك أنني رحت أشرد في استعادة ليلة الأمس، ليلة عملي

الأولى في مرقص القشامر، حيث أسي يرقص ببهجة أعرف تماماً أن لوجودي معه وموافقاتي على ما أراده دور كبير فيها. فبعد أداء فقرته الكوميدية الافتتاحية، قام بدور روسا في الإشراف العام دون أن يهمل دوره الدعائي بالتنقل بين الزبائن. وعلى الرغم من أنه ظل يحمل في يده كأسه، إلا أنه لم يرتشف أكثر من قدحين من البيرة طوال السهرة التي تعمد أيضاً ألا تتأخر حتى الفجر كما في نهايات أسابيع أخرى، فقد استطاع وبتهذيب وذكاء ما، أن ينهيها في الثالثة بعد منتصف الليل.. ربما كان يفكر بتعب فاطمة وبتعبني في يومي الأول وسفري في اليوم اللاحق. لكنه بالتأكيد لم يكن على بينة من نشوتنا أنا وفاطمة حيث التقارب التدريجي والاحتكاكات.

أستعيد من ليلة الأمس مشاعر انهيار الحواجز بيني وبين فاطمة التي كانت تعلمني كيفية إدارة الحسابات والاستجابة لطلبات الزبائن، كما تدلني على أنواع المشروبات وكيفية تحضيرها وتقديمها.. كانت تقوم بالأمر مزدوجاً في آن واحد.. أي القيام بعملها وتعليمي، تؤديهما معاً.. فكنا معاً طوال السهر/العمل. خلف دكة البار. كانت تتحرك كأنها نحلة تطير بين أزهار متجاورة، دون أن تنسى شيئاً ودون أن تنسى ابتسامتها. في أثناء ذلك، ولضيق المكان، كثيراً ما تصادم أحدنا بالآخر واحتك به. كنا نشعر في دواخلنا بهذه الملامسات ونهتز حد القشعريرة العذبة وإن أظهرنا حياديتها/حياديتنا واعتذرنا بروتينية لبعضنا في بادئ الأمر، لكننا بعد أن تكررت رحنا نكتفي بالتبسم.. هذا إذا لم نكن ننعدها أحياناً.

من بين كل تلك التصادمات لا أستطيع إيقاف استعادة ذراعي محتكاً بأحد يديها، ولا تمسح فخذني بردفيها عندما مررت من خلفها لأتناول شيئاً من إحدى العائلات في الصالة فيما كانت هي منحنية لإخراج المزيد من المزة/من علب الزيتون المكونة على الأرضية أسفل

أوطأ الرفوف. فخذني مر على رديها.. صورة أستيدها منذ الأمس كثيراً، والآن على البطيء كما في التقنيات السينمائية، على مهل، على البطيء كأي أدق متعمقاً.. لكنني في الحقيقة ألتذ. فخذني يتمسح بردفها الأول يجده لدناً طرياً متيناً كروياً معاً كبالون طفل ممتلى بأنفاس أمه، ثم يواصل فخذني زحفه لينحدر في المنخفض بين الردفين في الوادي بين تلتين يمر القطار الآن وتسري الرعشة من فخذني إلى بدني، مروراً يصعد بعدها الردف الثاني وهو يواصل احتكاكه الحميمي وحتماً أنه قد فتحهما قليلاً.. هذا ما أتصوره وأرتعش.

لم يكن العمل صعباً كما تصورته.. بل على العكس، وجدت بأنه يعجبي، وخاصة ما يتيح لي من تواصل دائم مع آخرين وتعامل مباشر معهم.. أمر كنت أعاني من فقدانه في عملي السابق كوني مجرد سائق لا تتجاوز العلاقات فيه أصحابي بالعمل كأنتونيو وماريو وصاحبه كارمن وصاحب وكالة التوزيع.. لذا كانت العزلة والوحدة طابعاً سائداً على حياتي.. أما هذا العمل فهو مختلف تماماً، لأنه يتيح التعامل مع مختلف النماذج.. بل ويجبرك على إيجاد صيغ للتفاهم معها وفهمها، لأن القصد هو كسبها كرباتن.. أمر له إيجابياته أيضاً في أن ساعات العمل تنقضي ممتلئة بالحياة والحياة وسريعة غير مملة.. لا شعور معها بالتعب أو الملل أثناعها، لكن فيما بعد، عند انتهائه حين تقرر أن تستريح ستشعر بالتعب وأوجاع في ساقيك لطول الوقوف.. لكنك ستستريح.

لا أستطيع الزعم بأن هذا الذي أشعر به تجاه فاطمة هو حب لا أستطيع مقاومته أو تفاديه.. لكن ربما أستطيع توصيفه بحالة معروفة، وهي أن يوكل الأمر فيها لسيادة العقل أكثر من القلب.. ثمة طرف آخر تعتقد بأنه يناسبك وبأنه يصلح لأن تقيم معه علاقة حب تدرك تماماً بأنك ستحبه، حقيقة، لاحقاً بالمعاشرة. وبعد أن تتعرف عليه

تعرف، مسبقاً، بأنه يصلح لإقامة علاقة قد تقود إلى أن تصبحا في حاتمها شريكين في الحياة، زوجين.. إذا فالأمر لا يتعلق بالنظرة الأولى المهيمنة، ولا بمشاعر انشداد وجذب غامضة تخرج عن نطاق سيطرة الإرادة، أو تستحيل مقاومتها.. وإنما هو نوع من القناعة والاختيار.. بل وفيه يسري منحى القصدية الواعية المدبرة. هذا بالنسبة لي فالذي أشعر به تجاه فاطمة.. أو لأقل؛ الذي أفكر به، لأنه أصح من القول (أشعر به).. أنه يختلف تماماً عن هوسي وعشقي الراءف لعالية التي هي عشقي الأول وربما الوحيد والأخير.. كانت عيناها الصغيرتان ثقبين سحرين بالنسبة لي تستحيل علي مقاومتها فمهما وبهما أرى متعة حياتي ومعناها. فيما لفاطمة عينان واسعتان ورمشان طويلان سوداوان بشكل أعرف أنه الفتان وفق الذائقة التقليدية العامة.. وهما كذلك فعلاً: عينان فانتتان.. لكنهما لا يفعلان بي ما فعلناه عينا عالية.

إذا ففاطمة يمكنني التفاهم معها، ولمة مودة، ولمة اشتها.. إنها صالحة ومناسبة ومستعدة للشروع بعلاقة حب.. إنها قابلة للحب.. ونظراتها، طريقة تعاملها معي، نبرات صوتها عندما تحدثني، ردود أفعالها، توددها وابتسامتها الدائمة.. كل ذلك يؤكد بأنها هي الأخرى تبادلني الرضا والموافقة ذاتهما.. بل إنه يشكل بمجمله صيغة من النداء يدعو للخطوة القادمة المعروفة.. لمة نوع من الشعور، لا بد أن الجميع قد مر به أو عرفه، وهو الشعور بأن الآخر المقابل يبادلك القناعة ذاتها والاستعداد ذاته، وأنه لمة وجه من التفاهم والفهم الصامت، وأن الآخر بانتظار لحظة الشروع ببناء العلاقة.. بل ولدي هاجس إضافي يوحى لي بأن أبعي ومن خلال ما كان يشير به لأحدنا عن الآخر وممازحته لأحدنا أمام الآخر.. كان يدرك هذا الأمر.. هذا إذا لم يكن قد خطط له في داخله.. ويريده.

على مدى الساعات السبع إلى برشلونة، كان لفاطمة وذكريات تفاصيل ليلة الأمس، الحصة الأكبر من الاستعادة، وبأقل منها بكثير تداخلات ذكرياتي عن عالية التي كانت عادة ما تهيمن علي كلما مر القطار جوار ماء.. نهر أو بحيرة أو بحر. فيما كنت أطرد فكرة واحدة من رأسي كلما تقدمت إلى طابور تأملاتي.. ألا وهي قرار أبي بتنفيذ قَسَمه السذي غامر من أجله وأوصله كههدف إلى هنا، أي إدخال الرصاصَة المتبقية من مسدس ذلك الصبي في مؤخرة الدبلوماسي في السفارة العراقية، أي تلك المؤخرة ذاتها. كنت أشعر بالضيق وعسر هضم هذه الفكرة.. بل وغرائبيتها، على الأقل، بعد أن تركت تجربة أعوام العشرة في الغرب آثارها عليّ بحيث تجعلني أرى في أمر كهذا تهوراً وقسوة لا إنسانية.. وبأنه سلوك مرَضِي نتاجه وخيمة. فكيف لي أن أنثي أبي عنها وهي هدفه وقَسَمه على المصحف أمام جدي؟؟..

لا أستطيع التفكير في الأمر بشكل سليم، ولا أجد لدي صيغة واضحة للتعامل معه بحكم كونه جوهرياً في حياة أبي وتفكيره وعزمه. لذا أكتفي بتذكر بعض التفاصيل مما أوصاني به أبي بما يتعلق بعهمتي هذه إلى روسا. لقد تحدث كثيراً لكنني اكتفيت بالأساسي منها، وهي أن أشتري لها باقة من أزهار الياسمين الأبيض الكبيرة من محل قريب لبيتها، أحملها لها بعد أن أضع عليها البطاقة التي كتب فيها شيئاً وطواها، واستعملتها أنا فاصلة للقراءة في الكتاب دون أن أجد رغبة أو فضول بالاطلاع على ما خطه فيها. ولم أحرص على حفظ التفاصيل مما أراد مني أن أقوله لها، سأترك للقاء وللأحاديث عفويتها، فكل ما يريده هو أن ترضى وتعود إليه.. لذا فإن كانت هي في داخلها تريد ذلك فليس هناك مدعاة للكثير من كلامي وكذلك الأمر فيما لو أنها قد قررت في نفسها هجره.

إذا سأكتفي بالتحديث في منحى عودتها بما يمليه علي عفو الحالة
وسياقات الكلام. وكل ما علي فعله هو أن أحمل إليها باقة الياسمين
وأدق على جرس بيتها على العنوان الذي كتبه لي.. ولست قلقاً ولا ثمة
شعور بارتباك ما، فيما يتعلق بطبيعة تعاملتي معها.. بل أشعر بثقة
غريبة.. أو لا أدري.. كأننا نعرف بعضنا جيداً.. ربما بحكم رصيد
فهمي الجيد للشخصية والثقافة الإسبانية عموماً.. أو تراه نوعاً من
السرود والعادية إذا جاز القول، فالكثير ممن يعرفونني يصفوني بذلك،
وأفكر أحياناً بأن الأمر يعود إلى تأثيرات عالية علي بشكل ما.

وفي كل الأحوال فأنا أعرف تماماً إلى أين اذهب في برشلونة التي
أمضيت فيها أسبوعين من عطلة صيف العام الفائت فشدتني إليها بمخيلط
الأعراق والبنائيات المتعايشة على الرغم من فارق أعمار إنشائها، تلك
السالغة القدم مع تلك البالغة الجدة. ومهرجانية شارع الرامبلاس الذي
يلذ لي التمشي فيه ذهاباً وإياباً، ليلاً ونهاراً، بين طرف يؤدي إلى البحر
وطرف يؤدي إلى اكتظاظ وسط المدينة الحي، وأكثر ما يعجبني في
برشلونة شيان أرى أهما من يمنح لهذه المدينة ساقين تقف عليهما
هويتها المدهشة الجاذبة، وهما: البحر وبصمات عبقرتها غاودي..
أمضيت أيامي هنا بينهما بلا ملل مأخوذاً بما يمكن توصيفه بالاتساع
والمائل والثري والكوي القائد إلى ملامسة الدفين من القلق
الوجودي تخفيفاً أو مداعبة مُهدئة.. شيء ما، يشبه التعامل مع
الطبيعة الشاسعة.. وكل منها يبدو وكأنه طبيعة عظيمة بحد ذاتها
وليس كجزء منها.. لبرشلونة أيضاً روحية توحى لزاثرها باستمرارية
التاريخي المتنوع اللامنقطع، فيمنحك التداخل العائلي فيها واعتراف ما،
بقوة الحياة وعظمتها وعذوبتها ومهرجانياتها.. ترى ما الذي يعجب
أبي برشلونة؟.

وصلت في الساعة الرابعة مساءً، لم تكن معي إلا حقيبة الكنف الصغيرة التي اعتدت على حملها واطعاً فيها كتباً للقراءة ودفترًا وأوراقاً وأقلاماً ومناديل ورقية وعلب سجائر ومشطاً صغيراً.. لذا كنت أول النازلين من القطار، وتوجهت مباشرة إلى حمامات المحطة، أفرغت بطني ومثانتي وأنفسي فيها. غسلت يديّ ووجهي بماء بارد، وبللت رأسي ماسحاً على الرقبة، ثم أخرجت مشطتي الصغير من جيب الحقيبة، صفت شعر رأسي وحاجبي وشاربي.. وخرجت شاعراً بالصحو والراحة. أخذت سيارة تاكسي متوجهاً إلى عنوان روسا.. لكنني هناك لم أطرق جرس باب بيتها وإنما توجهت حالاً إلى محل بيع الزهور الذي وجدته كما وصفه أبي. اشتريت باقة الياسمين واستللت البطاقة من بين إطباق صفحات الكتاب طالباً من البائعة الشابة ربطها بياقة الياسمين، ففعلت ذلك بخيط ملون أنيق.

خرجتُ بعدها إلى مقهى مجاور، اتصلت منه بروسا فأصابتها الدهشة وقالت بأنها ستأتي حالاً. حجزت لنا طاولة قرب نافذة، قرب نافورة زجاجية صغيرة شوّهت صفاء ماءها أضواء المصابيح الملونة المغروسة في حوضها. طلبت قهوة بالحليب.. أرتشفها وأدخن محققاً عبر النافذة إلى باب العمارة التي فيها شقة روسا.. حتى أطلت هي وقد ارتدت بدلة بيضاء مطرزة الباقة بشرائط زهرية اللون وفي ذراعها حقيبة تشبه سلة بحكم كونها مصنوعة من جريد نباتات مُحففة.. هل هو القُتب أم سعف نخيل؟..

روسا طويلة ممتلئة يلتمع شعرها الأشقر تحت ضوء شمس المساء وهي تديره إلى الجهتين متفحصمة مسيرة السيارات حتى اجتازت الشارع مهرولة مباشرة دون الذهاب إلى منطقة خطوط عبور المشاة. أقبلت تسير على عجل يهتز صدرها العامر تحت بياض قميصها

وقلادتين إحداهما فضية الخرز والأخرى بيضاء مصفرة بلون العظام أو هي من عظام. من يراها لن يحسب بأنها قد اقتربت من الخمسين عاماً..
وها هو عطرها يسبقها بالدخول. حيت عمال المقهى، وبدا واضحاً مدى تعارفهما، ثم بحثت عني. رفعتُ ذراعي لها ملوحاً فأقبلت سريعة وتعانقنا.

ما إن جلست قبالي تطفح منها البهجة وتعزرها بالترديد:
يا للمفاجأة.. يا لها من مفاجأة جميلة.
اقترب منها النادل وقال: كالعادة؟.

هزت رأسها له وواصلت تعبيرها لي عن سرورها، فسارعتُ إلى دفع باقة السورد إليها، وكنت قد وضعتها على الكرسي المجاور لي فهتفت: أووه.. يا للروعة.. شكراً يا سليم.

قلت لها: الشكر ليس لي وإنما لمن بعثها، صاحب البطاقة.
فراحت أصابعها تفض المغلف ثم البطاقة التي كانت بأكثر من طية، حين فتحتها صدر عنها عزف هادئ لموسيقى أغنية عيد الميلاد المعروفة: أووه.. فغداً عيد ميلادي. شهقت روسا وراحت تقرأ بابتسامة مثقلة بمعاني الوله، ولم تنتبه إلى النادل الذي وضع أمامها قدحاً بالغ الارتفاع على الطريقة الألمانية ممتلئاً بالبيرة ثم انصرف بصمت، فيما أشعلتُ أنا سيجارة أخرى وارتشفت من قهوتي محدقاً في وجهها فشاهدت الدمع يسيل من عينيها بغزارة تاركة إياه يبلى ابتسامتها المتبدلة بين حالي البكاء والفرح.. لحظتها يستحيل علي من يراها أن يشك، ولو قليلاً، بعمق عشق هذه المرأة لنوح.

طوت البطاقة وضمتها إلى صدرها، تقبلها وتشهق، فسارعتُ بأن أدفع لها منديلاً أخرجه من حقيبتي. مسحت دمعها. ضحكت بضم شدة الانفعال وقالت:

- أبوك رجل مجنون.. وأنا الأخرى مجنونة لأنني أحبه مجنون.

ندمتُ لحظتها على كوني لم أقرأ ما كتبه لها في البطاقة. ولا أدري كيف نهضتُ واستدرتُ إلى الجهة الأخرى من الطاولة واحتضنتها جالسة، فبكت على رقبتي باتساع واهتزاز ومسرّة، تركتها شادة إياي إليها لبرهة حتى هدأت، ثم قَبَلْتُ جبهتها وأعنتها على مسح دمعها وعدت إلى مكاني.. قالت: شكراً لك يا سليم.

هدأت وارتشفت من كأسها، شُمت باقة الياسمين ووضعتها جوارها فوق الحقيبة واندلعت بالكلام:

- لم أحب رجلاً كما أحببت أليك.. حين وجدته لم أجد في نفسي وقلبي أي حاجز يعيق دخوله.. شعرتُ بأنه هو الرجل الذي طالما انتظرته طويلاً.. هو بعينه.. هناك أشياء كثيرة مشتركة بيننا، مثلاً (ضاحكة) مسألة حبنا للألمان.. هل تعلم بأنني ومنذ طفولتي ينادونني في العائلة والمدرسة بالألمانية؟ لأنني أشبههم كثيراً.. شعري الأشقر هذا الذي تراه لسونه حقيقي وليس مصبوغاً.. هيمتي الجئيثة العريضة الكتفين.. وأنا راق لي الأمر مبكراً.. لذا درستُ الألمانية كلغة ثانية، ثم تابعتُ ذلك في معهد غوته. ومنذ صباي أكاد أسافر إلى ألمانيا سنوياً تقريباً.. حديثي الأول مع أليك في مطعمه البغدادي بدأ من هذه النقطة أيضاً، فشعرت على الفور.. وكأننا نعرف بعضنا منذ زمن طويل، حيث كانت أولى كلماتي لي: هل أنت ألمانية؟.. فأجبت بالألمانية بأن: لا، وإنما أنا إسبانية ويقال بأن إحدى جداتي هي من أصل ألماني. جلس من فوره إلى جوارني ورحنا نتحدث بالألمانية وهو بين الجد والمزاح يصر على أنني ألمانية متخفية بجلد إسبانية.. تحدثنا عن فروقات الشعبين والثقافتين ثم عن غوته الذي نجه معاً فأدهشني أنه راح يتلو من ذاكرته مقاطع طويلة من أشعاره. الفرق بين الألمانية وبينني أنني امرأة ثرثرة

أحب الكلام كثيراً على العكس منهن (تضحك وتعلق) أنا إسبانية تماماً بهذه الصفة كما تعلم، وهذا فقط، الذي لا يعجب أبوك في.

هزرتُ رأسي متذكراً شكواه من هذا الأمر حين تناولنا غداءنا بالأمس، حيث قال: بأن المشكلة الوحيدة ألما ثرثارة.. يا أخي.. تُصدع رأسي بالكلام الفارغ حتى ساعات متأخرة من الليل.. (وبتهكم) أحياناً أفكر بأن الدكتاتورية أرحم لرأسي من عذاب لغوها.. على الأقل فالدكتاتورية تردد العبارات التافهة الفضاضة ذاتها.. لذا تصم أذنيك عنها وتستريح، لكن هذه، في المقهى والشارع والبيت والفرش على الوسادة نفسها تصب لغوها في فرج أم أذني تماماً.. يتسم ويضيف: لكنها طيبة وصادقة وكريمة على أية حال.

روسا تواصل هذرها ساردة حياتها ومعلقة على كل فقرة؛ والدها كان تاجراً معروفاً للذهب في برشلونة، هي البنت الوحيدة لوالديها، زوجها أرحتيني وهو الآخر تاجر ذهب انفصلت عنه بلا إنجاب وحملته السبب في ذلك، لم أحبه لكنه كان رجل أعمال ممتاز استطاع أن يواصل إدارة تجارة أبي بعد موته.. لكنه عملي أكثر من اللازم وأنا رومانسية. أشارت من النافذة إلى جهة بيتها وقالت: هذه العمارة ملكي والمحل الذي في وسط المدينة أجرته بمبلغ جيد. اشتريت أيضاً، منذ ثلاثة أعوام، بيتاً صغيراً جميلاً في ضواحي برلين، كلما ضقتُ ذرعاً هنا أهرب إليه لشهر أو لشهرين.. إذا كنتُ ألمانية الشكل والثقافة فأبوك يشبههم في العناد.. (وضحكت). نحن هنا نقول عن العنيد بأن رأسه مربع.. تخيل أنه هو المولع بألمانيا مثلي، كلما قلت له لنذهب للعيش هناك.. يرفض قائلاً: ليس الآن.. فيما بعد.. فيما بعد.

أصحتُ إليها السمع أكثر، هذه المرة، بنية أن أعرف فيما إذا كانت على علم بمدفه الحقيقي من إصراره على البقاء في إسبانيا،

وتحديداً في مدريد، أعني سر ميدالية مفاتيحه/الرصاصة. وحين وجدتها
تعبّر في حديثها إلى أمر آخر، سألتها: ولا تعرفين السبب؟. قالت: لا..
فقط يردد ليس الآن.. فيما بعد.. فيما بعد. إنه مجرد عناد.. ألم أقل لك
بأن رأسه مربع.. ولكن.. ها.. قلبه دائري.. إنه يخفي بين جوانحه قلباً
هائل الطيبة والرحمة والحلاوة.

- هل أفهم من هذا بأنك ستقبلين وساطتي وتعودين إليه؟.
ضحكت - طبعاً.. بالتأكيد.. فأنا سأصاب بالجنون أو أموت لو
افترقنا.. سأخذ الطائرة هذه الليلة نفسها.. هل أحجز لك معي؟.
- لا.. أنا مُتعب، سأبات الليلة هنا وغداً سأعود بالقطار.. أنا
أحب القطارات.

- إذا سأعطيك مفتاح بيتي.. أما أنا فلا أستطيع الانتظار حتى الغد.
تواصل هي حديثها الذي اسمعه دون أن أعيه في داخلي، مكتفياً
بجز الرأس، فقد كنت أفكر بالصيغة المناسبة التي سأسألها بها عن كيفية
ممارسة الحب بينهما وأنا أعرف ما تم تعطيله في أبي، في تلك الأيام
البعيدة من التعذيب الكهربائي في تكريت.. وأخيراً قررت المحاولة.
- لدي سؤال أتردد في طرحه ولكنني شديد الفضول لمعرفة
الإجابة عليه..

- اسأل.. اسأل.. يا سليم.. أنت عزيز على قلبي ونحن
صديقان.. أليس كذلك؟.

- نعم بالتأكيد.. ولكنه شخصي وخاص.. يمكنك ألا تجيبي
عليه إذا شئت.

مدت كفيها وربت على كفي: - سليم.. يا سليم.. لا حواجز
بيننا منذ الآن، ولك أن تثق باستيداعي أسرارك أيضاً إذا شئت.. ألم
أحدثك أنا عن نفسي بلا تردد؟.

- نعم.. نعم.. هو مجرد تساؤل.. يعني.. مثلاً.. أستغرب من شدة غيرتك عليه إلى هذا الحد و..

قاطعتني متفضة: - كيف لا أغار عليه.. إنه حبيبي.. وهو اللعين مشاكس يجيد التعامل مع النساء.. لديه القدرة على الإيقاع بأكثرهن انغلاقاً.. أنا أعرفه جيداً وأعرف لسانه.. وأنت حتماً تعرفه. لم أشأ أن أقول لها بأنني في الحقيقة لم أكن أعرف عنه ذلك أبداً، وإنما لاحظته مؤخراً هنا.. اكتشفته وأثار استغرابي ودهشتي فتصادمت تصوراتي عنه في رأسي. لم تُجب هي بما قالته على ما أردت.. لكن الأمر يشجع بمواصلة المحاولة.. فقلت بشكل متردد أو بتردد مصطنع:

- لا.. يعني.. ولكن، عديني بأن لا يعرف أبي بما سأسلك عنه.

رفعت الصليب الذهبي في قفلاتها إلى فمها وقبلته قائلة- أقسم لك.. سليم.. يا سليم.. إن سرك في قبر.. ثق بي.
- يعني.. قصدي كرجل وامرأة.. كأبي رجل وامرأة.. أنتِ وهو.. يعني.. قصدي في السرير..

فضحكت ملقياً بظهرها العريض على مسند الكرسي ثم عاودت الاقتراب وقالت بجدية:

- أووه.. فهمتُ قصدك الآن.. فهمت قصدك.. اسمع، لأبيك أصابع مُذهلة يجيد العزف بما على كل آلات الجسد بمهارة تفوق أكبر العازفين.. يا إلهي.. لم أعرف المتع واللذة التي عرفتتها معه، مع أي رجل غيره أبداً.. له أساليب غريبة ومُدَهْشَة كتوظيفه للتمر مثلاً، ولا تسألني كيف، ولسانه أيضاً.. يا لسانه، وركبتيه و..ا. وكما تعلم فالمرأة، وخاصة الرومانسية مثلي، لا تبحث في الرجل عن مزيد من زوائد

اللحم.. وإنما الذي يشدها إليه أشياء أخرى كثيرة، فالحب ليس هو
لحظات الفراش القصيرة وحسب، وإنما هو مجموع تفاصيل كثيرة،
ومنها مثلاً، صفة الرجولة في سلوكه وذهنيته وشخصيته، طريقة
الكلام، نبرة الصوت، طبيعة النظرات، طبيعة اللمسات، أماكنها
وتوقيتاتها.. الشعور إلى جانبه بالثقة والقوة والدفء، والـ..
وواصلت الكلام عن الحب.. بحب.

ثمة أناس يلذ لهم العيش بصفة الانشغال الدائم، لذا فهم يتحدثون عن مشاريع كثيرة ليس بالضرورة أن تكون واقعية، ويرصفون الوعود والمواعيد والتعهدات المصاغة كلاماً ويلقونها على رصيف زمنهم المؤجّل. البعض تراه مشغولاً فعلاً ومن لم يكن، فعلى الأقل يشعرهم المظهر الانشغالي بنوع من أهميتهم. ثمة أناس آخرون على العكس من هؤلاء - وأنا منهم - يفضلون أن تكون مفردات حياتهم واضحة ومحددة تسهل سيطرتهم عليها وإدارتها، لذا فإن أي شأن معلق يشعرهم بأهم معلقون.. نوع من القلق يورقهم.. ربما من هنا جاءت عاديّ في أن أنفرد بنفسى بعد كل كلام مهم أو حادث، أستعيده وأحلله كأنى أحاول ترتيبه ضمن ما أعتقد أنه مُرتب في حياتى، من هنا أيضاً ربما يأتى تفسير هربى من قرينى أيام تعفن الجثث، وشعورى بالاختناق لانعدام وسائلى في ترتيب كل تلك الحال المعقدة..

أسوق هذه المقدمة لأتحدث عن الأمر الأهم الذى بقى معلقاً ويورقنى، ألا وهو هدف أبى فى أن يفرز الرصاصة الأخيرة فى مؤخرة الدبلوماسى الذى كان فى متهوراً ذات يوم. لذا تُربكنى ابتساماته وغمزاته الموحية لى ودائماً أفسرها كإشارة للسر الذى بيننا، يرعبنى التفكير بقدوم اللحظة التى سيفاتحنى فيها بالأمر ويطلب مشاركتى.. بالتأكيد سأرفض، لكن المشكلة - المعلقة بالنسبة لى - تكمن فى كيفية أن أثنى عن تنفيذ هذا الأمر.. وخاصة أنى أعرف بأنه هدف أساسى لرحلته الغريبة هذه وغاية لكل هذا الذى يخطط له ويمثل ويعمل وبجمال

ويحتمل.. إنه القَسم أمام جدي، الذي لن يشعر بالراحة أبداً ما لم
ير به.

ها أنا بعد مرور شهر، تقريباً، على عملي في المرقص، أجدني
منسجماً وراضياً بل وملتزماً بهذا العمل، وربما للشعور بحيويته وتجدده
عبر تجدد الناس وصبغته الاحتفالية أثر في ذلك، كذلك الشعور بحريتي
بالحضور أو التأخر أو الغياب وبأنني صاحب عمل أكثر من كوني مجرد
عامل مأمور. الأمر الآخر هو تطور علاقتي بفاطمة نحو مصيرها المتوقع،
فقد أصبحنا حبيبين علناً بعد أن تصارحنا بما في الأذهان والقلوب
والرغبات، الاحتكاكات اليومية في العمل قادتنا إلى احتكاكات أوسع
امتدت إلى الشارع ومحيط القريين إلينا وإلى البيت، فقد تكرر طلبها،
حين تتأخر، أن تنام في بيتي حتى انتهت إلى أن أمنحها نسخة من
المفاتيح، وبدت جليلة بصمات وجود المرأة في حياتي وفي بيتي. لقد
انفتحنا على بعضنا بشكل كلي، تلامسنا وقبلنا بعضنا وتشاركنا النوم
في سريري وفي اختيار الملابس والذهاب إلى السينما في أيام عطلنا
الأسبوعية. أخبرت هي أختها، التي سارعت أنا لمساعدتها في بعض
الواجبات المدرسية، وأخبرت أنا أبي وروسا اللذين قالوا إنهما يعرفان
وباركا لنا.. كذلك عرف بالأمر زبائننا الدائمون والأصدقاء وجارتي
الكوبية وبواب العمارة..

أعني تماماً بأن فاطمة ليست عالية ولا يُفترض بي المقارنة كي
لا أحررها على تلبس سلوكيات ليست من شخصيتها حقيقة، فلكل
إنسان كيانه المختلف، وكنت دائم الانتباه مع نفسي للأمر.. ولكنني لم
أستطع بأن أقتلع قطعياً جذور عالية من روحي.. لذا لم أستطع أن ألغي
كل المقارنات بينهما مع نفسي.. لفاطمة عينان واسعتان تبرز دوائر
سوادها جذابة وسط سطوع الأبيض، فيما لعالية عينان صغيرتان

تخترقان روعي. لفاطمة شفتان إفريقيتان غليظتان وهما ضعف شفتي عالية الرفيعتين حجماً، لذا فهما حقل خصب لقطف القبلات الشهية.. الجميل في الأمر أنني تمكنت من إقناع فاطمة بأن نطلي، بين حين وآخر، أصابعنا وشفاهنا بالتمر وعسله ونمصهما غرقى في التقيل.. لقد استغربت الأمر في بادئها لكنها راحت تعاده.. بل وتستسيغ لذته الأمر الذي أشعرتني بالراحة والكفاية والانتصار.. وكأني قد صرت أرى في هذا الأمر مسألة جوهرية للتطابق مع هويتي خاصة بعدما أبحث به روسا عن أساليب يتبعها أبي مع التمر، فاستطعت، على ضوء ذلك ودهشي، تفسير أوسع لوجود التمر في شفتيها في مدريد وتوفره في بيتها في برشلونة الذي بت فيه وحيداً.

كان مرتباً كأنه مكان سياحي، وحين رأيت النباتات وأصص الأزهار تملأ أرجاءه تذكرت بأن بيتي يخلو من أية نبتة، وقلت كيف ذلك وأنا من عائلة فلاحين فيما هي ابنة تاجر للذهب؟!.. لم أطل بتأمل المسألة حينها مكنفياً بأول تبرير وجدته حين قلت: كلُّ يبحث عما ينقصه.. لكنني فكرت بأن أضع شيئاً من الخضرة مستقبلاً في بيتي الشيبوي.. ذلك أن الذي استغرقني في قطار العودة هو التفكير بأصابع أبي وبالتمر والذي قادني إلى التساؤل عن إصرار جدي على توافر كيس تمر في بيتنا.. فهل كان جدي مثلنا هو الآخر؟!.. وانتابني التفكير بأننا نحن الثلاثة نتشابه في أشياء كثيرة، ربما نحن في الأصل شخص واحد تعدد في أكثر من جسد وجيل، لكننا نختلف عن بعضنا في الكثير أيضاً!.. فهل هو نوع من محاولات الطبيعة البشرية للتكامل؟!.. وما هذا المناخ الخاص في علاقتنا الذي تتخفى فيه رغبة كل واحد منا بتربية أو إعادة تربية الآخر؟!.. ترى هل أن ما يتشابه فينا أكثر مما يختلف؟!.. هل نحن حقاً ثلاثة مستقلين في كينوناتنا عن بعضنا تماماً؟!.. حينها حملتُ

القطار، وحَمَلَنِي، طوال الرحلة الكثير من الأسئلة حتى وصلنا ولم نصل إلى أجوبة.

حين هممت بممارسة الحب مع فاطمة ذات ليلة، اعتذرت قائلة بأنها تفضل ألا يحدث ذلك إلا في حالة الزواج.. سرني الأمر كثيراً لأن هذا ما كنت أتمناه وأريده أصلاً في داخلي.. ربما كنوع من المقاومة حتى النهاية في عدم الوقوع في الخطيئة التي زرع جدي في ضميري حرائق الرعب من عواقبها. فعبرت لها عن موافقتي.. بل سروري بذلك، وما كنت لأنوي فعله - مع شديد التردد - إلا لظني بأنها قد ترتاب برجولتي وأن لمعيشتها في الغرب أعموماً تأثيراً على قناعاتها تجاه مسألة كهذه.. فكشفت لي بأنها لم تقم بالأمر إلا مع زوجها السابق وهي الأخرى تحمص بمقاومة صعبة على عدم وقوعها في الخطيئة، لذا كنا نمارس كل شيء باستثناء الواقعة.

أمر آخر جعلها أقرب إلى عالمي الخاص، هو تذكيرها إياي بمواعيد الصلاة ومن ثم معاودتها لأدائها متقطعة في البداية ثم منتظمة. بالتأكيد حدثت فاطمة عن عالية كثيراً ودمعت عينها حين رأت عيني تدمعان عند حديثي عن مشهد غرفها فاحتضنتني بحنان فائق أتاح لي سكب بكائي بارتياح، كما لم تبد أية غيرة من وجودها في ذاكرتي لاحقاً. وحين حدثتها عن الأشعار التي كنت أكتبها لها ورد فعل عالية عليها ضحككت، ومن خلال توسيع الكلام عن الشعر وإجاباتي عرفت بأنني مازلت أكتب الشعر، وعرفتُ أنا طبيعة رأيها فيه فوجدته حيادياً تماماً.. أو هي في الحقيقة غير مهتمة به وإن قالت - مثل كل الناس - بأن الشعر يعجبها. تلت هي من الذاكرة أبياتاً من الشعر الكلاسيكي كانت قد حفظتها من أيام الدراسة ولم تحفظ أو تقرأ غيرها، فيما تكاد تحفظ كلمات كل الأغاني العربية والإسبانية. سألتني أن أريها شيئاً من

شعري، فحاولت الممانعة كي لا أضع شيئاً قد لا ننسجم فيه، لكنني انتهيت بالموافقة بعد التفكير بضرورة أن تعرف وتطلع على ما يهمني.

لا أدري أين وضعت ما أسميته قصائد.. لحظة سأبحث عنها، ربما تكون وسط أحد الكتب التي قرأتها قبل أربعة أعوام، ثم صندوق يحتوي بعضها تحت سريري. تعالي الغبار وعطست، هذه واحدة.. هل أقرأها لك؟.. لا.. إني أنجس من ذلك.. لا.. أو نعم سأقرأها كنموذج، اسمعي، وطبعاً فالمقصودة هنا هي عالية، اسمعي:

أثمن من ضوء زنزانة

أعذب من تمر الصائم

شفتاها.. تمرتان

أصابها فاكهة فريدة

وعيناها.. بلا قواميس.

مرت على استحياء تُلغم الغيم بالنظرات

فلاحة أينعت في غفلة الساسة

حلمتها على العشق حرام

مباحتان للماء ونسيم السطوح

ستاوي للغياب ولن تروها

أبدأ.. أبدأ.

كانت قد ابتسمت عند ذكري للتمر، وعند الانتهاء صفقت بمرح وقالت أعجبتني، ثم سألت ببراءة: أهذا شعراً؟ أدركت لاحقاً بأنها لا تعرف بوجود شعر حديث بلا قافية، فاستغرقت بالكلام لها عن الشعر الحديث مستشهداً بنماذج من قصائد السياب والأغنيات الريفية. إذاً فهي بشأن الشعر تفرق عن عالية.

ترسخت قناعتي تماماً بكون فاطمة هي المرأة المناسبة لمشاركتي بقية حياتي، وبوضوح أكثر بأن تكون زوجتي، فرحنا نتحدث بالأمر على هذا النحو ونخطط لإيجاد اللحظة المناسبة لمفاتيح أهالينا به.. ترى هل أن أبي، هو الآخر، يفكر بإيجاد اللحظة المناسبة لمفاتيحي بقرار اختياره للحظة تنفيذ هدفه؟!.. هذا وحده هو أكثر ما كان يربكني ويقلقني، فها أنا أجد حياتي مرتبة، أدرك حدود مفرداتها المنظمة، وفق اعتقادي، بوضوح.. وخاصة ما يتعلق بالعمل والمرأة والغد الذي أكاد أراه منذ الآن.

أوشك أحياناً أن أفاتحه، أنا، بالأمر وأحوّل قلق انتظار اللحظة المناسبة لتكون بيدي، لكن الذي يستعصي علي هو إيجاد المدخل المناسب أو الآراء التي سأسوقها عليه بحيث تكون من القوة في حجتها قادرة على ثنيه عما عزم عليه.. وهكذا أنت، كما يحدث كثيراً في الحياة، تلك اللحظة لوحدها.. بلا اختيار أو قرار مني أو منهُ، وذلك عند زيارته الأولى لشقتي حين جاء قبيل الظهر لشؤون تتعلق بالعمل وبنية أن يرى بيتي الذي دعوته لزيارته لأكثر من مرة - كما زعم - وأول ما هاله - كما حدث مع كل الزائرين لبيتي تقريباً - هو هذا المشهد الطاعغي لصور العراق وهي تغطي سقف الصالة وجدرانها.. لكن الذي فاجأني هو الاختلاف برد فعله عمن سواه.. فبعد أن جال لأكثر من مرة محققاً لها ومقرباً من بعضها لتدقيق النظر وإمعانه، نظر إليّ بتعابير محتبسة، نظرة طويلة.. كأنه يبحث خلالها عن التعبير الموفق عما يريد، وهكذا كان، فبعد أن صفقَ كفاً بكف، ثم عقد ذراعيه على صدره أمامي وهو ما يزال واقفاً، قال: ما هذا يا سليم!؟!.. ونبرته المدينة أثرت على صيغة نبرة تساؤلي وأنا أنطق: ماذا؟!..

قال: كنتُ أظنُّ بأنك أعقلُ من هذا.. وألا تقع في الحنين المرّضي الذي يقع فيه جل المغترين حين يصفون لأنفسهم بأن كل شيء جميل في بلادهم التي غادروها.. بما في ذلك الخرائب والمزابل..

قلت: إنه وطننا يا أباي.. إنه وطني.

حل عقدة ذراعيه ليستخدمهما بالتوضيح نافضاً إحداهما في الهواء: لا.. إن وطننا الحقيقي هو الذي نصوغه نحن بأنفسنا كما نريد.. لا كما صاغه غيرنا، كما فعل الطاغية.. إنه على هذا النحو ليس الوطن الذي نريده.. ولهذا هجرناه. الوطن مثل الحب يكون اختياراً وليس فرضاً.. وإذا كان لا بد لك أن تضع صوراً للوطن فضع تلك التي تريدها أنت أو حتى تلك التي تصوغها بنفسك أنت.. لا.. لا..

كان يهز كفه تجاه الصور كمن يودعها، أو كمن يرفض شيئاً قدّمته له الجدران. دار حول نفسه ثم جلس على الكنية زافراً وهو يواصل التعبير عن حبيته: لا.. لا.. كنت أظنُّ بأنك أعقل مما أنت عليه..!

استفزني قوله.. شعرت بأنه يهدّد مملكتي التي بنيتها وربتها بصبر مواظب على مدى أعوام، وأنا أكاد أخترع في وحدتي لكل صورة من هذه الصور حكاية وتاريخاً وعالمًا بأكمله.. لقد أغاظني شطبه المتعالي هذا، بلحظة واحدة وبكل بساطة، لكل هذا الذي أقمته وعاشتته بقناعة طوال أعوام غربيّ العشرة هنا.. شعرت وكأنه بقنبلة واحدة يقتل كل عائلتي التي كوئنتها بجهد طويل وبمحبة وأحلام خاصة.. لذا أصابني ما أصابه من الصمت باحثاً عن الرد الشافي الذي يثار لنفسي الجريحة، زفرت أنا الآخر ووجدت نفسي أرعد. حرارة جسدي تصاعد، ثم أسارع للجلوس أمامه وأنظر في عينيه بتحد عاصف وحال من القوة لم أعهد عليها ذاتي من قبل أبداً، لتخرج كلماتي على إثرها محتقة، محتدة، صادمة بمجوميّتها؛ وأنا أيضاً كنت أظنُّ بأنك أعقل مما أنت عليه.

فاجأه قولي بالطبع فقال: كيف؟!.

استعدتُ عنه قليلاً، رافعاً الكرسي الذي أجلس عليه إلى الخلف ومنزلاً إياه. قلت: أن تفعل كل هذا الذي فعلته من أجل تحقيق هدف متخلف وثافه ومجنون كوضع رصاصة في مؤخرة شخص آخر. تخدع أُمي وتُحجر عائلتك، وتخدع روسيا وتستغلها، ثم هذا الانقلاب الراديكالي على كل إرثك الشخصي والأخلاقي والديني.. كل ذلك من أجل هدف سخيف؟!..

شعرت بقوة وراحة بعد أن قلت ذلك، وخاصة بعد أن لاحظت تمكيني من إغاضته واستفزازه بالدرجة ذاتها، إن لم تكن تفوقها، تلك التي استفزني بها. فقد اعتصر وجهه محمراً كأني طعنته، مسح وجهه بكفيه هازاً رأسه في راحتيه بهدف امتصاص الصدمة أو بهدف السيطرة على أعصابه ورد فعله، والدليل تغيّر نبرة صوته التي كانت واضحة في الشهادة على صعوبة التعقل المقصود.. إلى حد ما:

- .. أنا لم أخدع أحداً، لا أملك التي أوضحت لها كل الأمر، كما سبق وأن أخبرتك، ولا روسيا التي أنا أحبها فعلاً، كما أنني لم أنقلب على إرثي الأخلاقي والديني، كما تقول، وإنما على العكس من ذلك.. إنني بما أنوي فعله.. إنما أقوم بالتنفيذ الصميمي والجاد له.. وما كل هذا الذي أحرثُ بقسوة من أجله إلا لكي أبر بقسم أقسمته على القرآن أمام كائن غائب إلى الأبد، فلو لم أكن ملتزماً بإرثي الأخلاقي فعلاً لما كان هناك شيء آخر يجبرني على البر بقسم كهذا.

قلت بنبرة ما تزال هجومية: أي تخلف هذا، وأي جنون..! نحن الآن في عصر آخر وبلد آخر وثقافة أخرى، وأمر كالذي تُهدف إلى فعله لن يفهمه أحد.. بل ويُعد جريمة خطيرة يحاسب عليها القانون.

فَضُّ هَائِحاً فَبِدا بِالمَشْهدِ المَعْتادِ عِنْدَ غَضْبِهِ وَالمَذي أَصْفِهِ
بِالمَسْرُوحِي، لَيْسَ لِتَصْنَعِهِ وَإِنَّمَا لِحَرارَتِهِ، حَيْثُ يَدورُ فِي المِكانِ وَيومِي
بِكُلِّ ما يَتَحَرَّكُ مِنْ أَعْضاءِ جَسَدِهِ مَهْتزاً بِكَلِيتِهِ عَلى إِيقاعِ الكَلِماتِ
التي تَبْدو وَكأنَّها تُنْتزَعُ انْتزاعاً مِنْ أَحْشائِهِ:

- وَأَيْسَنَ هُوَ عَصْرُكَ هَذَا.. وَثقافتِهِ وَقَوائِنِهِ وَهُوَ يَرانا نُذْبِجُ يَومياً فِي
بَلَدنا عَلى مَرأى مِنْهُ.. بَلْ وَبِدَعَمِ مِنْهُ أحياناً!.. ها.. أَيْنَ.. ها..؟؟..

كان مُخيفاً حقاً وَهُوَ يَدورُ حَولِي مِثْلَ ثورِ هائِحٍ، حَولَ الكُرسيِّ،
ما جَعَلَنِي أَفْضُ لِأَقْفِ أَمامِهِ كَأَنَّمَا بِفَعْلِ غَرِيزِي، فِيمَا يَواصِلُ هُوَ
صِراخَهُ وَيَرِكلُ الحائِطَ بِقَدَمِهِ.. وَأنا عَلى يَقِينٍ مِنْ أَنَّهُ لو كانَ فِي بَيْتِهِ
هُوَ لِراحِ يَحْطِمُ كُلَّ ما يَجِدُهُ أَمامِهِ.

- .. ها؟.. أَيْنَ هِيَ حَضارَةُ وَقَوائِنِ هَذَا العالَمِ الحَقيرِ، الجائِفِ،
المِنافِقِ، السِنْدِلِ؟.. وَهُوَ يَرانا تُساقُ كِالْخِرافِ إِلى المِجْزرةِ بِلَا ذَنْبٍ..
ها؟.. نَعَم.. قُلْها.. نَعَم.. قُلْها صِراحةً بِأَنَّكَ لا تَريدُ مِشارَكَتِي بِالأَمْرِ،
وَلِيسَ بِعَلَمِكَ، فانا لَمْ أَطَلِبُ مِنْكَ ذَلِكَ، وَلِستُ بِحاجَةٍ إِليكِ فِيهِ وَلَمْ
تَكُنْ فِي حِسابِي، وَحَسناً فَعَلْتَ أَنَّكَ قَدْ كَشَفْتَ عَن نَفْسِكَ قَبْلَ أَنْ
أُوهِمَ نَفْسِي بِكَ أَكْثَرَ.. ها.. قُلْها.. صِراحةً إِذاً.. أَنْتَ خائِفٌ..
رَعيدٌ.. مَخْثٌ.. أَنْتَ جَبانٌ.. خائِسٌ.. جائِفٌ..

عِندَها لا أَدرِي كِيفَ قَرِبتُ وَجْهِي إِلى وَجْهِهِ، فَكنا كِديكِينِ
مِنفُوشينِ فِي حَلِبةِ صِراعٍ، وَصَرَختُ:

- أَنا لِستُ بِجَبانٍ.. وَإِنَّمَا الفِعْلُ الجَبانُ الحَقِيقِيُّ هُوَ المَذي تَنوِي
فَعْلَهُ.. وَهَكَذا فَأَنتَ الجبـ..

صَفَعَنِي عَلى وَجْهِهِ بِكُلِّ جِبروتِهِ حَتى أَسْقَطَنِي أَرْضاً.. ثُمَّ غادَرَ
صافِئاً البابَ وَراءَهُ بِعَنفٍ اهْتَزَّ لَهُ كُلُّ المِبنى.

حين جاءت فاطمة، في المساء، وجدتي غاطساً، بكل عُربي،
في حوض الحمام، فبعد أن صفعي أبي وشفع الباب خلفه، بقيت
لبرهة ملقى على الأرضية منتحياً، وقد شل كفه وجهي، مددت
ذراعي إلى أوطأ الصور وأقرها إليّ ورحت أنزعها عن الجدار
وأمزقها فيما يهذر لساني بالسخط: لا أريد وطناً.. اللعنة عليه..
اللعنة على كل شيء.. فلم أعرف فيه وأحمل منه سوى الوجع،
وطني إسبانيا.. لا.. ولا حتى إسبانيا.. لا أريد أي وطن.. لست
بحاجة إلى أي وطن..

أحرق بالصور الممزقة بين يدي ثم أنشط بالبكاء، بانكسار
خَنون:.. لكنه العراق.. العراق.. يا أبي.

أنفض على ركبتي محاولاً إعادة الصور الممزقة إلى أماكنها. كان
داخلي يموج بعواصف تحاور بعضها بصخب، فحملتني عاتية منها على
قدمي مجنوناً ورحت أحرط كل الصور المعلقة وألقيها هشيماً. كفي
تحسس حدي الأيمن الذي كان وخزه يزداد ضراوة فأحمل نفسي
داخلاً إلى غرفة النوم، ممزقاً كل ما بقي هناك، ثم ملقياً بي على
السريـر ومتدثراً باللحاف كلياً. أتكور على نفسي، مثل جنين، بكل
استطاعتي.. كأنني أحتضني. أبكي هناك وأرتعد مثل طفل تلقى عقوبة
لم تكن لتخطر على باله من والدين كانا يدللانه. أمواج هذيان
المتضاربة معي تحت ظلمة اللحاف، تتبادلني بين شتم لكل شيء وترديد
عبارة أبي: هذا العالم جايف.. هذا العالم جايف..

قررت ألا أرى أبي بعد اليوم أبداً، أن أقاطعه، أن ألغيه تماماً من حياتي.. كأنه لم يكن، هو وعائليّ والعالم وجددي.. آه جددي.. كم أنا الآن بحاجة إلى حنو أصابعك الفائض علينا في أسرة المرض! وأنا في سريري الآن وحيداً أتوجع يا جددي.. لكنك قد تنحاز إلى أبي باعتباره يريد تنفيذ ما تريد، أو مجرد أنه أبي وأنت المردد بأنه لا يجوز قول أف للوالدين ولا فخرهما. فمن لم يرض عنه والداه لن يحظى برضى الله.. آسف يا أبي.. لقد أخطأتُ بحقك، تناولتُ عليك ورفعت صوتي بلا أدب.. كنت أستحق أكثر من صفقة واحدة منك إذا.. اعذربي يا أبي.. ولكنني غير مقتنع بما تريد فعله، حاولت نيك لأبي أحبك وأخاف عليك.. نعم أخاف.. ليس هذا لأنني جبان كما تعتقد، فخوفي هذا من نوع آخر.. هل تفهمه..؟ هل تفهمني؟.. طوال غربتي وأنا أراك تُجلسني، طفلاً، على ركبتيك وقدمك في شاطئ دجلة تقرأ لي قصائد غوته، لماذا لا تكن أنت الذي أحن إلى الالتصاق بظهره على ظهر حمارنا حين أوصله إلى الطريق العام..!.. لحظات دافئة. كنت أشعر عندها بأن قلبي الصغير يعانق فيها قلبك من وراء أضلاعي وأضلاعك.. وحتى رائحة عرق إبطيك كانت بالنسبة لي هي أركي ما أشم.. كنا نلوح لبعضنا وأظل أراقبك تبتعد.. ألوح.. وألوح حتى تختفي بك السيارة نقطة سوداء في خط الشارع الأسود.. فهل صفعتك لي اليوم هي تلوينة وداعنا الأخيرة!؟.

أمواج داخلي تهزني في الظلمة تحت اللحاف وأشعر بأن عرقني أمواج ترافقها أمواج من دقات بكائي وأمواج من الألم المتصاعد في وجهي. لا أعرف كم بقيت على هذه الحال، ثم نهضت متوجهاً إلى الحمام فرأيت حمرة خدي الأيمن أقل مما توقعت لأنني كنت أتصوره ملطخاً بدمي. غسلته بالماء البارد فقلت: أحتاج إلى الماء.. الماء، الماء يا عالية.

ملأت حوض الحمام، ألقيت بكل ثيابي على الأرض وتمددت في الماء مسنداً رأسي على الحافة، غاطساً حتى رقبتى، حتى أذني.. علي لا أسمع شيئاً، علي لا أسمع نفسي ولا صدى صفع أبي لنا أنا وباب بيتي.. غاطساً حتى أذني.. حتى ذقتي.. حتى اختناقتي.. حتى جاءت فاطمة وهوت علي بقلب كسير: - سليم حبيبي.. ما بك؟!.. ماذا حدث!؟.

قرفت جوار الحوض وتناولت رأسي تلهه على صدرها.. مثل أمي، مثل عالية، مثل جدي في لحظات حنانه.. وربما بكيت أيضاً. أهضتني بعاطفتها وتناولتني بالروب المنشفة برفق محتضنة إياي.. تماماً كما كانت أمي تتلفني من طشت الغسيل بعد أن تسبحني وهي تترجم لي بأغاني الحصاد والشاي والمطر: "مطر مطر يا عالي.. أطل شعر رأسي. رأسي يا رأسي العالي.. أمطر على الناس". تأخذني مبتهجة وتشميني كتفاحة ناضجة، تقبلني وتقول: الله ما أحلى سلومي.. حبيبي نظيف.. حبيبي نظيف. وتقول فاطمة تعال إلى السرير يا حبيبي. مددتني هناك، تحت اللحاف ثانية، وهي تصفف لي شعر جبهتي الندي مبعدة إياه عن عيني بأصابع كالريش وتقبلني وسط الجبين وعلى أنفي، فأقود أصابعها إلى صفحة خدي الأيمن علّ وخزه يهدأ، علّ أحمره قد انجلى، وربما هو كذلك لأنها لم تسألني عنه، أم تراها تصورته بسبب استنادي عليه على حافة الحوض!.. فهي لم تسألني عنه واكتفت بتكرار السؤال: ماذا حدث؟!.. وأنا أردد أن لا شيء.. لا شيء.

فتواصل هي الاستدراج: وجدت المرقص مغلقاً، وحين ناديت على بيت أبيك خرجت لي روسا وقادتني بعيداً عن الباب هامسة بأن شيئاً قد حدث بينكما، أعني أنت والدة السيد نوح.. وقالت أنه ممدد في فراشه يشرب ويدخن ويرتجف.. إنه في حال سيئ. ولم تخبرني بأكثر

من أن شيئاً قد حدث بينكما، وبأننا لن نفتح المرقص اليوم للعمل..
واذهبى يا فاطمة لتكوينى إلى جانب سليم.. ماذا حدث يا سليم؟..
ولماذا كل الصور ممزقة هكذا؟.. وأنت ترتجف..

- لا شيء.. لا شيء.. أو.. نعم.. لقد أخطأتُ بحق أبى..
رفعت صوتي عليه وأسأت أدبى.. هل تعرفين يا فاطمة بأن أبى لم
ينظر في وجه جدي على الإطلاق.. على الإطلاق.. كان يحترمه ويحمله
كما يجب.. أما أنا.. أما أنا..

- اهدأ يا حبيبي.. كل شيء سيُصلح.. اهدأ وكل شيء
سيكون على ما يرام..

- لا.. إلا أنا فلن أكون على ما يرام أبداً.

- اهدأ الآن.. اهدأ الآن، سأعد لك شيئاً أخضر.

على مدى يومين لم أخرج من البيت. فاطمة ترعاني كأنني
مريض. أعانتي في تحقيق رغبتى بخلع كل الصور، ولملمت ما تفتت منها
في علبة واحدة. أحياناً نداعب شفتي بأصابعها وتمازحني بفتح مقصود:
أتريد عمراً؟. تغيب أطول حين تذهب لتجلب لي علب الدخان أو
للتسوق أو لزيارة أختها. علمتُ فيما بعد أنها كانت تلتقي بروسا،
فهي لا تتحدث معها في الهاتف إلا بكلمات قليلة وأكثرها ترداد
كلمة: نعم.. نعم.. أو كي.

حتى جاءت إليّ روسا صباح يوم الجمعة كانت فاطمة قد غادرتني
فيه بحجة أن أختها تحتاجها اليوم وبأن عليها إنجاز بعض الشؤون
المنزلية الأخرى كغسل الملابس وكنس البيت والتسوق، قائلة إنها
ستعود في المساء.. وطعامك جاهز في الثلاجة.

احتضنتني روسا وبكت متوسلة: أرجوك يا سليم.. تعال معي
لرؤية والدك.. إنه يقتل نفسه هكذا.. لا يأكل.. فقط يشرب الكحول

ويسدحن، ينام أحياناً مرتعشاً هاذياً في الفراش وصافعاً رأسه بقبضتيه، يضرب الحائط بقدميه وكفيه ورأسه، ويرأسه يطرق حديد السرير.. إنه يحطم كل شيء.. إنه يحطم نفسه.. إنه يتعذب يا سليم. لقد قبلتُ أنا وساطتكَ بيننا.. أتذكُر؟.. فتقبلَ وساطتي بينكما.. أرجوك.. إنه يقتل نفسه لو استمر على هذه الحال.. إنه يعذب نفسه لأنه صفعك ولا يخبرني بحقيقة ما حدث.. فقط يصفع نفسه في كل لحظة ويقول: لقد صفعتُ سليم يا روسا.. أنا حيوان.. أنا حيوان.. أرجوك يا سليم تعال معي.. لأنه سيقتل نفسه هكذا، ولو حدث له مكروه فسأمت أنا الأخرى.. أرجوك..

رافقتها مزوداً بعلبتين من الدخان واضطراب هادر بدقات القلب.
فتحت لي الباب بحذر وهمست:
- ادخل أنت وسأبقى أنا هنا.

رأيت أبي مستلقياً على الكنب في عتمة الصالة. منفوش الشعر. ذراع تتدلى في الفراغ حاملة قنينة ومن اليد الأخرى يمتص سيجارة. وما أن رأني حتى هب إلي معانقاً. بكينا في رقاب بعضنا وكل منا يطلب الصفح من الآخر. هو يقول بأنه أب فاشل وأنا أقول بأنني ابن عاق. سامحني.. سامحني أرجوك. وحين فككنا عنقنا وجدته يمد إلي بخده الأيمن قائلاً: اصفعي.. اصفعي. لا يا أبي.. لا يا أبي. فأقبل خده وأحتضنه من جديد.

بدا لي أكثر هزلاً، متعباً ومهزوماً على نحو لم أر فيه كل هذا الضعف من قبل. حين هدأنا على الكنب متجاورين تحيط بنا الزجاجات الفارغة وأماننا على الطاولة منفضة فائضة بأعقاب السجائر. شعرنا بتوحدنا أكثر من أية لحظة أخرى، وشعرنا بوحدتنا وبغربتنا الحقيقية في هذا العالم (الجاييف) أكثر من أية لحظة أخرى. وبعد أن سادت هدأتنا،

فكرت لو أنني كنت قد استثمرت الموقف واشترطت عليه، لأسامحه، أن يتخلى عن عزمه على تنفيذ غايته. لكنني رضيت بالأمر لأنني أنا من كان يحتاج إلى الصفح منه، ومن ثم كي لا أثير هذا الموضوع مرة أخرى. لكنني وجدت نفسي، خلال حديثنا اللاحق، أشير إلى رغبتني بشكل آخر أكثر ليونة وحيادية مصطنعة. وكان هو الذي لامس الموضوع، حين كشف عن حقيقة ضعفه المخفي أو بالأحرى قوته التي أعرفها، فقد كشف لي عن التصارع في داخله حول هذه القضية، فهو، كما يقول، بين نارين إحداهما ما أسميته أنا، سابقاً، بإرثه الأخلاقي والسديني، وأنا أعرف عمق قسمة على القرآن وكبر معناه أمام هيبة جدي، ومعنى الثأر وجدية حد القداسة في عُرفنا الاجتماعي، والنار الأخرى هي قناعاته الخاصة التي تتفق مع ذاته ومعني، في أنه، في الحقيقة، رافض للعنف وثقافة الثأر ولا يستسيغ التعصب. "صدقني يا سليم.. أنا وإن ظهرت بجلد ذئب لكن لي قلب حمل وديع" .. يقول بأنه لو نفذ غايته سيندم ويتعذب وإن لم ينفذها سيندم ويتعذب..

- لن تندم يا أبي ولن تعذب.. صدقني.

- لكنني قد أقسمت على القرآن، يا سليم، وعاهدت أبي؟!

- "لا يواخذكم الله باللغو في أيمانكم".

- لم يكن لغواً.. كنت صادقاً وجاداً في قسمي.

- إنه تأثير اللحظة، فقد كان للأمر لحظته الخاصة المشحونة بالغضب

وتغيب العقل.. الله كبير وهو عالم بذلك وبكل شيء، وجدي سيفهم

الأمر حين تكون الأشياء أكثر وضوحاً وجلاءً في العالم الآخر.

كنتُ أعزز دعم كلامي بما أذكر من القرآن وأحاديث النبي،

وخاصة حين لاحظت يسر تقبل أبي لها أو ربما لأنه، في الأصل، يريد

التبرير من هذا الباب تحديداً.

- "وإن عاقبتُم فعاقبوا.مثل ما عُوِّقْتَهُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ
لِّلصَّابِرِينَ" ..

- وآزاد.. ماذا سأقول لأخي آزاد؟.

- قل له أي شيء.. بأنك قد نفذت الأمر.. أو أن الشخص المقصود
لم يكن هو.. أو أنه قد انتقل إلى بلد آخر، إلى جهة مجهولة، إلى جهنم..
أو مات.. أو أي شيء.. أو أخبره بحقيقة قناعتك الجديدة.. بل، وحتى
حاول إقناعه بالكف عن سلسلة انتقاماته وتأثره.. فمبدأ العين بالعين مرير
يا أباي.. صحيح أننا نحن الذين سنناه ولكن تجارب الإنسانية اللاحقة
توصلت إلى أن تطبيقه سيجعلنا، في النهاية، كُنَّا عَمِيَان.

- الأمر ليس بهذه البساطة يا سليم، فقد راكمتُ حقدِي على
هذا الشخص طوال هذه الأعوام.. فكيف سيمكثني التخلص من ذلك
في لحظة؟!.

صمتُ قليلاً بعد أن كنت قد شعرت بتدفق الكلام على لساني
ومرونة الحكمة، إذا جاز لي أن أصف ذلك على هذا النحو.. أو إذا
جاز لي أن أسم نفسي بذلك!.

- للتفيس عن نفسك أرى بأن تتصل به الآن هاتفياً وتلقي على
مسامعه بكل ما تريد.

ونمضت متناولاً دليل الهواتف مقلباً صفحاته الصفراء، فيما كان هو
سائماً لا يعد السيجارة عن فمه. غمامة دخانها تلف وجهه.. حتى سمعته
يقول: عندي رقم الهاتف واسمه. واستل من جيبه دفترًا صغيراً لأرقام
الهواتف والعناوين. فتحه، ثم دفعه إليّ مشيراً بإصبعه إلى الرقم والاسم،
ودون أن أنظر إلى وجهه، رحلت أدير قرص الهاتف، وحين جاءني صوت
امرأة، طلبت منها أن توصلني بالشخص المعني.. لأمر هام رجاء. قالت:
لحظة من فضلك. دفعتُ بالسماعة إلى أباي ورحلت أراقبه.

كانت كفه ترتجف وشفته تتهلجان. وبعد لحظات انتظار قصيرة، انفجر بصوت عالٍ ومخوق:

- لماذا؟..

ثم سرعان ما تدفق الصراخ الرهيب حد قشعريرة الجسد..

- لماذا؟.. لماذا فعلتم بنا كل هذا يا مجرمين.. يا حقراء.. يا

خنازير.. يا أبناء الزنى.. يا..

وسمعت جلبة إغلاق الطرف الآخر لسماعة هاتفه ليتصل بعدها الطيبين، فيما أبي يواصل صراخه: لماذا؟.. لماذا؟.. هويتُ عليه محتضناً، فأجهش بالبكاء شاخراً كثور ذبيح، ودخلت روسا هلعاً باندفاع. احتضنتنا معاً متسائلة: ماذا حدث؟ ماذا حدث؟. ثم سارعت إلى المطبخ عائدة بجرة ماء تغسل به وجه أبي وتسقيه.

بعد وقت، لا أستطيع تقديره، من هذا الاحتدام الذي لم أعرف مثله في حياتي، وأشك بأنني سأشهد مثله ثانية، هداً أبي أكثر مما توقعناه.. كمن تقياً طعاماً مسموماً كان يزعمه، كأن الـ (لماذا؟) هي الآفة التي كانت تأكل جوانحه، وراحت صفرة وجهه تتلاشى بالتدريج.. عندها قلت له:

- ما رأيك أن نذهب اليوم معاً إلى المسجد ونصلي الجمعة؟.

قرأتُ في ملامحه ارتياحاً وهو يومئ لي بالموافقة..

- إذا سأذهب أنا الآن إلى بيتي ريثما تغتسل أنت وتأكل شيئاً

وسأتي لمرافقتك.

قبلته وخرجتُ تشيعني نظرات روسا بالشكر والأسئلة، وهي ما

نزال تطوق رقبته بذراعها وفي الأخرى جرة الماء.

بعسد خروجنا من المسجد إثر صلاة الجمعة الماضية، صافحني أبي وقال: تقبّل الله صلاتك.. شكراً لك يا سليم. صمت قليلاً، ثم أضاف: ما كنتُ أتوقع هنا وجود هذا العدد الكبير من المسلمين وهذا المسجد الجميل. كان هادئاً كأن قلبه من ماء رائق، وهالة الرضى الروحي تجلله بوضوح. شعرتُ عندها بأنني قد استعدت أبي واجداً فيه الكثير من صورته القديمة. لذا قررت عدم مواصلة الحفر فيما يكتّم.. سأكف تماماً عن تساؤلاتي.. سأناسها.. أو الأدق؛ سأناسها وخاصة ذلك المتعلق بطبيعة موت جدي. ولن أسأله فيما إذا كان قد تخلى عن هدف البر بقسمه، أم أنه أجله، وحسب، وسينفذه دون علمي.

أعززُ هذا القناعة، ولو من باب التبرير أيضاً، بما قاله خطيب الجمعة: يا إخواني.. إن الله يقول: "لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم".. فليس من المفترض بنا أن نعرف كل شيء، وإذا كان في المعرفة راحة أحياناً، فإن في الجهل والنسيان، أحياناً، راحة قد تفوق راحة المعرفة.

أشعر بارتياح ما، وأنا أستعيد، في الأيام الأخيرة، إحساسي بكون مفردات حياتي عادت لتكون مرتبة. صبغتُ جدران صالة بيبي مغطياً ثقوب المسامير بالأبيض. أبي صبغ شعره بالأسود. فاطمة تقول إن أهلها وافقوا على زواجها مني، بقي أن نخبر أباك. أبي وروسا بكامل أنانتهما يجلسان بانسجام أمامنا على الطرف الآخر

من دكة البار بعد أن تأكدا من جاهزية كل شيء للعمل، لسهرة الليلة. يقول لي: شعرك قد طال.. هل تريد أن أحلقه لك مرة أخرى؟ ويضحك. لا يكف عن الشرب والدخان لكنه، ولأكثر من مرة، أبدى نيته بتقليهما.

أذكر أنه قبل يومين قال لي: أرى أن نحاول الذهاب إلى المسجد في كل جمعة. رفع الكأس التي في يده وأضاف مبتسماً: على الأقل كي نقلل من ذنوبنا. الوقت مساء وكنا نحن الأربعة فقط في المرقص لأن العاملتين الإسبانيتين لم تأتيا بعد. أبي وروسا يتهامسان بيهجة، وفاطمة تمس لي: هيا أخيره.

- أبي، روسا. أنا وفاطمة نريد أن نغبر كما بشيء.

- ونحن أيضاً لدينا مفاجأة لكما.

- ما هي؟

- لا.. قولاً أنتما أولاً.

- فاطمة وأنا قررنا أن نتزوج.

نُضاً معاً عن مقعديهما هاتفين فرحاً بكلمات التهئة وراحا يأخذان رأسينا، من خلف الدكة، بالتقيل. ثم أمرانا أن نصب لنا شيئاً نشربه وشرعنا بقرع كؤوسنا على طريقة تبادل الأتخاب الاحتفالية. سنقيم لكما هنا حفلة هائلة. ووسط هرج الاتبهاج سألت روسا، كأى امرأة، أو بنوع من إضفاء المزيد من الحميمية العائلية وإشاعة طول الآمال: وماذا ستسميان أبناءكما.. يعني مثلاً إذا كان المولود بنتاً. أو ربما قالت ذلك لأنها قد وجدت فينا نوعاً من تحقيق، تعويضي، لحلم أمومة لم تُحققه.

قالت فاطمة وهي ترمقني بمغزى: أنا أعرف. وقال أبي: وأنا أعرف أيضاً. فسألته فاطمة: ماذا؟. نظر إلي أبي وقال: عالية.

فقفزت فاطمة مصففة له: صحيح.. صحيح. وقارعنا كؤوسنا مرة أخرى ليختلط رنينها بضحكاتنا. وبعد الهدأة قالت روسا: أما إذا كان ولدأ فأنا أقترح أن تسمياه نوح. وكفها تمسد رأس أبي من الخلف، لكنه بادر بنبرة أراد منها الإيحاء بالسخرية: لا.. هذا فأل سيئ فما ذنب المسكين الصغير كي نُحمّله مصائبني. ثم وسع من ابتسامته وحدثني بي موقناً من قوة سخريته هذه المرة حين قال: سنسميه صراط. فصفقنا أنا وهو كفينا ببعضهما، كصبيين، منفجرين بضحك عال وسط دهشة امرأتينا، ووجدتني أنساق مع حمية الضحك لأزيدة بتعليقي: ولكن صراط بنقطة أو بدون نقطة؟. تصافت كفانا ثانية وارشد أبي من شدة ضحكه.. إلى أن عاود هدوئه ثم اقترب، فقلت بجدية حقيقية: سنسميه مطلق. فصافحني أبي وقال: نعم هذا جيد.

وسألت فاطمة: - والآن ما هي مفاجأتكما؟.

نظرت روسا إلى أبي قائلة: أقول أنا أم تقول أنت؟. ثم قالت دون انتظار: قررنا الذهاب إلى ألمانيا وأن نترك المرقص وشقتنا لكما إن أردتماهما.. وأضافت باسمه: على أن تدفعا أنتما إيجارهما طبعاً. وأضاف أبي: هناك سنبحث أيضاً عن أصدقائي من أيام النفط في كركوك؛ كريستوف وزوجته ساينه.

العاملتان الإسبانيتان دخلتا قبيل حلول الظلام، في موعدهما المعتاد، وبالطبع تم الكشف لهما عن أسباب هذا المناخ الاحتفالي (وهاتك يا بوس). هذه المسرة التي يبيدها البعض بمشاركة الآخرين فرحهم، أو يتعاطف شخص مع هموم آخر.. دائماً تمس في صدري وتراً عاطفياً من الانفعال تدمع معه عينايا أحياناً، مثلما يحدث لي عند مشاهدة مواقف من هذا النوع في الأفلام. أعرف أن مشاركات من هذا النوع بديهية وقديمة بقدم إنسانية الإنسان.. لكنها، بالنسبة

لي، دائماً جديدة، فأنفعل فرحاً بالطيبة والخير مثلما أنفعل توجعاً من الشر.

ومع حلول الظلام في الخارج واشتعال أنوار أعمدة شوارع المدينة، كان بعض الزبائن الدائمين قد وصلوا مبكرين وهم يستبقون بدء الرقص بأن يطلبوا شيئاً بسيطاً يأكلونه إلى جانب ما يشربون.. كنوع من التهيئة والاستعداد للتمتع بالسهرة من أولها وإلى أن تصبح أجسادهم عاجزة عن المزيد من المقاومة.

كلما تزايد العدد تزايد معه الصخب والدخان. ولاحظت كذلك تزايد ما يشربه أبي ويدخنه، وهو يقول لنا كلما اقترب لطلب كأس جديد: لا بأس.. لا بأس.. مرة واحدة لا تضر.. وهذه الليلة خاصة تليق بالاحتفال بما إلى أقصى حد.

فضلت تصديقه بدلاً عن معاودة هواجسي بالانشغال مجدداً في محاولات تفسير سلوكياته ومحامتها، وقلت لنفسي؛ علي أن أتعلم تقبله كما هو بكل تناقضاته - فمن ذا الذي لا يتطوي على تناقضات؟.. لا أحد. - وليس لي أن أوصل فرض، على ذهني وعليه، صورته التي أريد.

وكالعادة حين يرى المكان قد ازدحم، وبعد أن يأخذ أعضاء الفرقة الموسيقية مواقعهم، صعد إلى الدكة المسرح، خالعاً الميكروفون من عصاه ومقرباً إياه إلى فمه، حيث يفتح السهرات بـ (مونولوج/خليط من لغات) فقرات من الكوميديا والمزاح وكلمات التسخين التي تبث الحيوية في الجميع، متخذاً في كل سهرة شخصية مختلفة ليمثلها: سائق تكسي، مطرب مشهور، جندي، امرأة ثرثرة، بائع خضراوات، لاعب كرة قدم، طيب.. وغيرها. صعدت روسا إلى جسواره كي تترجم عند الضرورة. كان هذه الليلة أكثر مرحاً وخفة

وابتهاجاً وتمثيلاً من أية ليلة سبقتها. واكتشفتُ، وأنا أراه مرتفعاً تتسلط عليه الأضواء، بأن أبي بالغ الوسامة والثقة بالنفس والقوة ناضحاً بالحياة.

بدأ بنبرة صوت مُفخّمة عن قصد وقال:.. مساء الخير، سيداتي أنسائي سادتي، طابت ليلتكم.. يا شعبي العظيم. فاشتعلوا كالعادة بدفقة من التصفيق والصفير وأحدهم يصيح: عاش الملك. فيما يرد عليه البقية: عاش، عاش. ويضحكون.

تحنّج هو بعدها كمن ينظف حنجرته، ومثلاً بأنه يعدّل ربطة عنقه وهو بدونها (ضحك) ويبدو أن تقديمه اليوم سيتقصر فيه ساخراً هيئة ملك، أو الخطباء السياسيين، وهذا ما بدا مما قاله ومما تلبسه من هيئة وملامح وصوت حتى الآن.

أمركم اليوم بأن تفكروا الأحزمة عن البطون فلدينا الفائض من الشراب، ونحن بحاجة إلى نفض جيوبكم. وأمركم بالرقص حتى تقطع مَشَدَّات سراويلكم الداخلية، فلدي لكم الليلة أخبار عظيمة: وليّ عهدي، الأمير سليم سيتزوج من الأميرة فاطمة. الجميع يلتفت إلينا (بالتصفيق والصفير والتهنئة). أما جلالتي والملكة روسا فسوف تنتقل إلى ألمانيا العظيمة. وسبق لي عهدي ليقوم مقامي، لذا أحذركم من أن يتجرأ أحد منكم على إزعاجه، لأنني سأجيء طائراً وعندها سيرف ما الذي سأفعله به.

صاح أحدهم: ماذا ستفعل؟. فأجابه على الفور: سأدعوه لتناول ما يشاء على حسابي. (ضحك، تصفيق). يواصل أبي خطابه مُجيداً الإيحاء بين ما يريد إيصاله جاداً وبين ما يقصد به الإضحاك. وكان يكثر من تكرار كلمة (عظيم). فاطمة إلى جوارى متوردة الخدين بابتسامتها الدائمة التي كانت هذه الليلة أكثر اتساعاً وعذوبة.

وهي تكاد ترتفع عن الأرض بخفة تحركها، تجيب للزبائن طلباتهم وترد على تهنئاتهم. أخبرها بأبي أفكر بتغيير عمل هذا المكان لاحقاً من مرقص إلى مطعم عربي مثلاً. توافقتي وتقول بأنها ستطبخ وجبات مدهشة.. سأجعل الزبائن يقبلون على الكسكس بالطواير. فأنا لا أجد الموازنة بين كل هؤلاء المتناقضين.. لا أجد إدارة المرقص مثل أباي يا فاطمة.

وأبي يقول في الميكروفون: أود أن أشكر الجميع على حسن استضافتهم لنا في اغترابنا، وأعلمكم بأن الأصنام في العراق ستسقط حتماً. أقول الأصنام ولا أعني التماثيل. عندها سنعود لنعيد بناء قريتنا الجميلة، لتكون أرضاً للسائحين لا للقبور، وسوف نسميها (الأحرار، أو المطلق، أو الكرامة)، اللهم آدم علينا حبنا للحرية وكرامة ابن آدم، وأمتنا كما تريد أو كما نريد لا كما يريدون.. قولوا آمين.. فدوى الحشد(أميين).. والجميع مدعوون ليكونوا ضيوفاً علينا.. ولكن.. ها.. لن نفتح فيها مرقصاً بالطبع. هتفت إحداهن به: فماذا ستفتح للضيوف إذا؟. أجهما: سأفتح لهم ساقيك. (ضحك، تصفيق وصفير).

أخبر فاطمة بأبي أفكر بأن نجلب جاري الكويتية للعمل معنا في مطعمنا القادم.. وأقول لها بأبي أفكر أن نأخذ شقتيها لأن فيها غرفتين وهكذا يمكن لأختك أن تعيش معنا أيضاً.. كما أننا سنحتاجها للأطفال.. وسوف نـ... وضعت فاطمة إصبعها على شفتي بحجة، قاطعةً بذلك سلسلة ما أروح لها به مما أفكر أن نفعله مستقبلاً.. وكأني كنت أجاري أباي في خطابه عن المستقبل. وقالت: إشنش.. سنواصل الحياة يا سليم.. سنواصل الحياة.. ودعنا الآن نستمتع بهذا المسرح.

بعد ثلاثة أيام، سلّمني أبي المفاتيح.. بلا رصاصة.
بعد ثلاثة أيام أخرى، غادر أبي وروسيا إلى ألمانيا.
بعد ثلاثة أيام أخرى، علمتُ بأن ذلك الدبلوماسي قد نُقل إلى
السفارة العراقية في برلين منذ أسبوع.
!!!

مكتبة
الفكر
الجديد

تمر الأصابع رواية

محسن الرملي

• رواثي وكاتب من العراق

بعد أكثر من كتاب له في القصة القصيرة والمسرح والشعر والترجمة، هذه هي الرواية الثانية للكاتب العراقي محسن الرملي الذي حظيت روايته الأولى (الفتيت المبعثر) باهتمام نقدي عربي وغربي جاد وحازت ترجمتها الإنكليزية على جائزة أركنساس الأمريكية سنة 2002. وقد صدرت (تمر الأصابع) باللغة الإسبانية أولاً في مدريد. تدور أحداثها بين العراق وإسبانيا وتتناول جوانباً من طبيعة التحول في المجتمع العراقي على مدى ثلاثة أجيال، فتتطرق إلى ثنائيات ومواضيع شتى كالحب والحرب والدكتاتورية والحرية والهجرة والتقاليد والحدثة والشرق والغرب.. وغيرها.

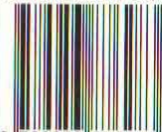
قال عنها الكاتب الإسباني المعروف رافائيل ريج بأنها: «رواية تطرح علينا أسئلة نخشى طرحها على أنفسنا وتكشف لنا مما نجهله عن أنفسنا نحن الأسبان، وهي في الوقت نفسه بمثابة رحلة للتعرف على الذات من خلال التعرف على الأب».

ووصفها الشاعر والناقد مانويل رينا في مقال له عنها في صحيفة الأبي ثي بأنها: «رواية مشحونة بالعاطفة، بديعة باستحضاراتها وحنانها وتمتاز بقدرة كبيرة على رسم التناقضات ونقاط الاختلاف والتلاقي بين ثقافات الغرب والشرق.. إنها بحق هدية للفكر والحواس».

فيما كتب عنها المسرحي والشاعر فرانتيسكو ثينامور قائلاً بأنها: «جميلة، جميلة جداً هذه المشاهد والحكايات التي يبديها لنا محسن الرملي والتي تتعلق بالحب والتراجيديا والثنائيات وبالتحول والصراع بين التقليدي والحديث».

بينما اعتبر المحقق الثقافي لصحيفة (الموندو) محسن الرملي بأنه واحد من أهم الأصوات في النثر العراقي المعاصر.

ISBN 978-9953-87-628-3



9 789953 876283

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

هاتف: 1676179 2 (+213)
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
editions.elikhtilef@gmail.com



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

www.neelwafurat.com

نيل وفرات.كوم



جميع كتبنا متوفرة
على شبكة الإنترنت